الفيصل

- الــرُّؤى وقصة الحيَّة من الحياة
- تاريخ طباعة الكتب العربية في روسيا
- النظام التربوي التركي
- هل يمكننا فهم كوريا؟!

مجلة ثقافية شهرية - ذو القعدة - ذو الحجة ١٤٣٠هـ / نوفمبر - ديسمبر ٢٠٠٩م

تفاقم الفقر

تهديد لاستقرار عــالمنا اليــوم وغداً


قريباً «الفيصل» إلكترونياً

www.alfaisal-mag.com



المحتويات

إدارة التحرير
رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
نائب رئيس التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

هيئة التحرير
حسين حسن حسين
محسن بن حمد الخرابة
حوى النبي علي صالح
سيد علي الجعفري

الإخراج الفني
الوليد إبراهيم دينار

المراسلات للتحرير والإدارة
ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي
١٥٠ ريالاً سعودياً للأفراد، ٢٥٠ ريالاً سعودياً للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات
هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع
في مكتبة الملك فهد الوطنية
٤١/٢٤٥٠
ردمد ٠٤١١ - ٨٥٢٠

الناشر
دار الفيصل الثقافية



إلى أيّ مصير يُساق ستة مليارات من البشر يعيشون على كوكبنا؟ وهل يصدق الذين غمرتهم فرحة ما ظنّوه نجاحاً في نهب معظم ثروات عالمنا أنهم سوف يشكّلون فعلاً ما سمّاه منظّروهم (المليار الذهبي) الذي يحتكر الرفاهية، بعدما انزلق ثلاثة مليارات إنسان من أصل ثلاثة مليارات وأربعمئة مليون هم شعوب البلدان الفقيرة إلى ما تحت خط الفقر، بمعدل دخل فردي يقل عن دولارين أمريكيين في اليوم، بل فيهم ٢,١ ملياران، يحصل كل منهم على أقل من دولار واحد يومياً؟!

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات. في حال إرسال قصة مترجمة يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدرًا من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض تشمل: عنوانه، واسم مؤلفه، ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
- يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
- يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
- التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
- تشكيل الشعر ما أمكن، خصوصًا القديم منه.
- ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

السعودية ١٠ ريالات. الكويت ٨٠٠ فلس. الإمارات ١٠ دراهم. قطر ١٠ ريالات. البحرين دينار واحد. عُمان ريال واحد. الأردن ٧٥٠ فلساً. اليمن ١٠٠ ريال. مصر ٤ جنيهات. السودان ١,٥ جنيه. المغرب ١٠ دراهم. تونس ١,٢٥٠ دينار. الجزائر ٨٠ دينارًا. العراق ٨٠٠ فلس. سورية ٤٥ ليرة. ليبيا ٨٠٠ درهم. موريتانيا ١٠٠ أوقية. الصومال ٢٠٠٠ شلن. جيبوتي ١٥٠ فرنكاً. لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية. الباكستان ٢٠ روبية. المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية. الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع. هاتف ٤٨٧١٤١٤(٠١). فاكس ٤٨٧١٤٦٠(٠١)، مصر. مؤسسة توزيع الأهرام. شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥. فاكس ٣٣٩١٠٩٦. ٢٠٢... سورية. المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ٥٣٠١ هاتف ٨٤٢٨٢١٢. فاكس ٢١٢٢٥٣٢. ١١. ٠٠٩٦٣، تونس. الشركة التونسية للصحافة. ٣ نهج المغرب. ص.ب ٧١٩. فاكس ٧١٤٠٠٣٢٣/ هاتف ٩٣٢٢٤٩. ٧١. ٢١٦ ٠٠، قطر. دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع. ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢. فاكس ٤٦٦١٨٦٥. ٠٠٩٧٤، الأردن. شركة وكالة التوزيع الأردنية. ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١. فاكس ٤٦٣٥١٥٢. ٦. ٠٠٩٦٢، البحرين. مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠. فاكس ٥٣١٢٨١. ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة. مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٤٩٣٥٦٦٢. فاكس ٢٦٦٩٨٢٧. ٤. ٠٠٩٧١، الكويت. شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢. فاكس ٢٤١٧٨٠٩. ٠٠٩٦٥، المغرب. الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢. ٠٠٢١٢ ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣، الجمهورية اليمنية. القائد للنشر والتوزيع هاتف: ٢٠١٩٠١/٢. ٣. ٠٠٩٦٧ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧

رســـائلكم

أين «الفيصل»؟

كنتُ أتطلع بشغف إلى «الفيصل» لاقتنائها مع مقدم كل شهر عربي، وكان الأمر يسيراً بالنسبة إليّ؛ إذ كنت أتّفق مع أحد محلات توزيع الصحف لكي يحفظ لي نسخةً من المجلة بعيداً من الأعين.

وقد رأيتُ هناك من يفعل مثلي، ولكن منذ مدة ليست بالقصيرة لم تعد المجلة تصل إلى هذا المحل الذي اعتدت التعامل معه، فرحتُ أطوف على محلات أخرى مشهورة، إلا أنني صدمت بعدم وصول المجلة إليها، ولا أعرف سبباً، أتوقف توزيع المجلة في مصر أم ماذا؟ وكيف لي أن أضمن الحصول على أعداد المجلة الفائتة واللاحقة؟

آمل النظر في هذه الرسالة، والإجابة عن تساؤلاتي؛ حتى لا تنقطع الصلة بيني وبين المجلة التي أحببتها منذ أمد بعيد.

صبري قورتي

القاهرة - مصر

التحرير:

نعتذر لك لعدم استطاعتك الحصول على المجلة، ونفيدك أنها لم تنقطع عن السوق المصرية، وإذا كانت هناك مشكلة في التوزيع فسوف نعمل على حلّها بالتفاهم مع شركة التوزيع. والأعداد السابقة التي لم تحصل عليها يمكن تحديدها وإرسال قيمتها بشيك إلى قسم الاشتراكات في المجلة، ونشير إلى أن الاشتراك أفضل وسيلة لضمان وصول المجلة بصورة منتظمة.

كما نشير إلى أن الإخوة القراء أصحاب الاستفسارات والمشاركات يمكنهم مراسلة المجلة على العنوان:

alfaisalmagazine@yahoo.com

متاهات المسابقة

لاحظتُ أن المسابقة في المدة الأخيرة تورد أسئلةً ذات عدة احتمالات؛ مما يشوّش على القارئ، ويجعله يحار في الإجابة الصحيحة المطلوبة. لذا آمل البُعد عن مثل هذه الأسئلة، وأن يتم التركيز في الأسئلة المباشرة التي لها إجابات محددة؛ تيسيراً على القارئ حتى لا يدخل في متاهات محيرة. مقدراً لكم الاستجابة لهذا الطلب من قارئ متابع.

أبو فراس

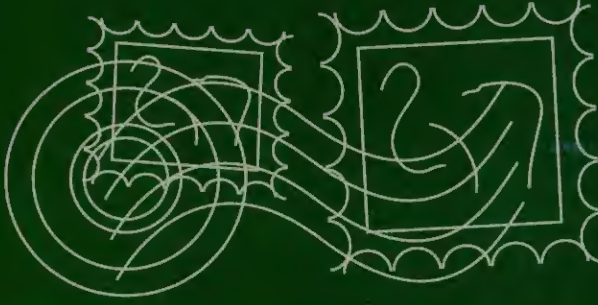
دمشق - سورية

التحرير:

نشكر لك ملاحظتك، وسوف نعمل على أن تكون الأسئلة أكثر تحديداً، علماً أن الأسئلة التي لها أكثر من إجابة يتم اعتماد أيّ واحدة منها، مع أمنياتنا للجميع بالفوز.

هل من مزيد؟

قرأتُ الحوار الذي أُجري مع الدكتور محمود شريف بسيوني، وقدم



فيه معلومات قيمة كانت خافية على كثير منا عن المحكمة الجنائية الدولية ودورها، وكيفية تشكُّلها.

وفي ظلّ التحولات السياسية أعتقد أن هذه المحكمة قد يكون لها دور كبير، خصوصاً أن تقرير جولدستون يمكن أن يفضي إلى محاكمة بعض المسؤولين عن حرب غزة أمام هذه المحكمة، فهل يمكنكم استكتاب الدكتور بسيوني أو أحد الملمّين بأبعاد هذه المحكمة لمزيد من الفائدة؟.

شاكراً للمجلة اهتمامها بالقضايا الجارية، وهذا دور من أدوارها، وهي تقدم زاداً ثقافياً متميزاً لقرائها.

سراج الدين إبراهيم

جدة - السعودية

التحرير:

نشكر لك اهتمامك ومتابعتك، ونأمل أن نتمكن من تحقيق رغبتك، ولعلك تعود إلى كتابات د. بسيوني ومقالاته وتصريحاته، ولا شك ستجد فيها كثيراً من المعلومات المفيدة في هذا الجانب، أو فيما يتعلق بالقانون الدولي عامةً.

آثار عسير

أودّ الإشادة هنا باستطلاعات الأستاذ تركي القهيدان، الذي يبدو أنه شغف بآثار المملكة، وحريص على التعريف بمدنها، وآمل أن يقدم لنا شيئاً عن الأمكنة السياحية والأثرية في منطقة عسير، وهي منطقة ثرة ومتميزة، وأعتقد أنه سيجد كل عون من الإخوة في الإمارة لإتمام مهمته، خصوصاً في ظلّ اهتمام صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن خالد بن عبدالعزيز - أمير المنطقة - بالتطوير السياحي الذي وضع لبناته صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل.

وفّق الله الجميع إلى ما فيه خير هذه البلاد.

أحمد الشهراني

أبها - عسير

التحرير:

نتفق معك في هذا التميّز للكاتب، ونشير إلى اهتمام المجلة بكل مناطق المملكة وآثارها في إطار دورها في التعريف بالمملكة ووجهها الحضاري. ونأمل كذلك إسهام كل الذين لديهم القدرة على دعم هذا التوجّه.



تفاقم الفقر

تهديد لاستقرار عالمنا اليوم وغداً

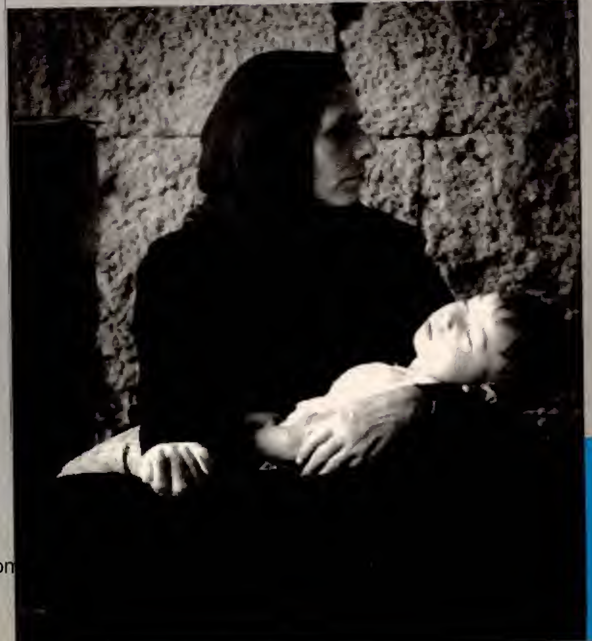
خير الدين عبد الرحمن

حلب - سورية

قال مبيكي - رئيس جنوب إفريقية السابق -: إن العالم أصبح اليوم يشبه جزيرة أغنياء تحيط بها بحار من الفقراء. كوكب سكانه فقراء، هواؤه من تلوث، أحياؤه عشوائيات. وبعد مدة قصيرة، عاشت مدن جنوب إفريقية، التي عرفت سنين من الهدوء والانتعاش الاقتصادي والرخاء، موجات عنف ونهب في أواخر شهر مايو/ أيار عام ٢٠٠٨م ضد المستثمرين والعمال الأجانب، خصوصاً من زيمبابوي ومالاوي وموزمبيق المجاورة. هذه بداية انفجارات توقّع كثيرون انتشارها في بقاع أخرى، كما أكّد باتريك بيرنيت وفيروز مانجي في كتابيهما: (من تجارة الرقّ إلى التجارة الحرّة: كيف تقوّض التجارة الديمقراطية والعدالة في إفريقية؟)، الصادر عام ٢٠٠٧م عن دار فاهمو.

فإلى أيّ مصير يُساق ستة مليارات من البشر يعيشون على كوكبنا؟ وهل يصدق الذين غمرتهم فرحة ما ظنّوه نجاحاً في نهب معظم ثروات عالمنا أنهم سوف يشكّلون فعلاً ما سمّاه منظّروهم (المليار الذهبي) الذي يحتكر الرفاهية، بعدما انزلق ثلاثة مليارات إنسان من أصل ثلاثة مليارات وأربعمئة مليون هم شعوب البلدان الفقيرة إلى ما تحت خط الفقر، بمعدل دخل فردي يقل عن دولارين أمريكيين في اليوم، بل فيهم ١,٢ ملياران، يحصل كل منهم على أقل من دولار واحد يومياً؟!

تحتكر الدول الصناعة الغربية نحو ٩٧٪ من الامتيازات العالمية كافة، وتملك الشركات الدولية عابرة القارات ٩٠٪ من امتيازات التقنية والإنتاج والتسويق، ويذهب أكثر من ٨٠٪ من أرباح إجمالي الاستثمار الأجنبي المباشر في البلدان النامية إلى ٢٠ دولة غنية. يظنّ ناهبو ثروات العالم أن هذا الوضع عنوان من عناوين نجاحهم، بينما لا يجد نحو نصف سكان البلدان النامية مياه شرب نظيفة صالحة للشرب، ولا يجد ربعهم أيّ سكن، ويفتقر أكثر من ٢٠٪ منهم إلى أيّ خدمات صحية اعتيادية، وتتزايد أعداد أطفالهم المحرومين تماماً من التعليم.



اتساع الفجوة

اتّسعت الفجوة بين حفنة من الأغنياء الذين يملكون كل شيء تقريباً في العالم والفقراء الذين لا يملكون شيئاً. وبلغت هذه الفجوة معدلات لا سابق لها في التاريخ: فيتباهى ثلاثة أشخاص لكونهم يملكون اليوم ثروات تفوق مجموع ما تمتلكه ٤٧ دولة فقيرة معاً. ويسيطر ٤٧٥ من كبار الأغنياء على أموال تفوق ما يملكه نصف البشرية مجتمعةً؛ أي ثلاثة مليارات إنسان، منهم مليار ونصف مليار إنسان يعانون حالة جوع مزمن.

إذا انتقلنا من النظرة الكوكبية الشاملة إلى نظرة إقليمية، أو قطرية، أو محلية، نجد الأمر مماثلاً، وربما أشدّ بؤساً في حالات كثيرة. رأى الكاتب المصري السيد يس مثلاً في راهن بلده أن الوطن قد تحول إلى منتجعات لأصحاب ثروات فاحشة باتت تنافس ميزانيات الدول، وعشوائيات لباقي الشعب الذي تغوص أغلبيته الساحقة بعيداً تحت خط الفقر.

وندقق معاً فيما نشر مركز دراسات الصراعات المعاصرة الأمريكي وسواه من أرقام عن راهن الأحوال العربية: يراوح معدل الدخل للفرد في العالم العربي بين ٢١٠٠ و٢٣٠٠ دولار. وإجمالي الدخل القومي العربي ٥٠٤-٥٥٢ مليار دولار، وهذا نصف الناتج القومي لأفقر ولاية أمريكية. ثراء دول الخليج التي يسكنها أقل من عشر العرب، التي تعدّ غنيةً وفقاً للانطباع السائد، هو ثراء خادع: فحتى لو تجاوزنا حقيقة أن ثرواتها مكدسة في أيدي بضع مئات من الأفراد، وقبلنا (منطق) توزيع الدخل السنوي نظرياً بالتساوي على السكان جميعاً: فالدخل الفردي في بلدان الخليج العربية لا يتعدى ١٠ آلاف دولار، وهذا أقلّ من خط الفقر في الولايات المتحدة لعائلة من أربعة أشخاص. وفي البلدان العربية الأخرى وضع أشدّ بؤساً: ففي مصر والجزائر - أكثر بلدين عربيين سكاناً - تتركز الثروة في أيدي ١-٢ في المئة من السكان، ولا تتجاوز نسبة الطبقة الوسطى ٣-٤ في المئة من السكان. أما الأموال العربية المهربة إلى أوربا وأمريكا الشمالية، فتتجاوز ٨٠٠

في مصر والجزائر أكثر بلدين عربيين سكاناً
تتركز الثروة في أيدي ١-٢ في المئة
من السكان، ولا تتجاوز نسبة الطبقة الوسطى
٣-٤ في المئة من السكان

تزايد كبير في نسبة الأطفال المحرومين من الخدمات الصحية والطبية

مليار دولار. في المقابل، تبلغ قيمة صادرات إسرائيل الصناعية نحو ٢٤ مليار دولار في السنة، بينما تقل قيمة كل صادرات العالم العربي مجتمعةً عن ١٨ مليار دولار. ازدادت البطالة في أكثر البلدان العربية؛ إذ تراوح بين ١٥٪ في بعضها، و٥٠٪ في العراق، و٦٠٪ في الضفة الغربية وغزة، مروراً بنسبة ٣٠٪ في الجزائر، إضافةً إلى البطالة المقنعة التي تُوصف معدلاتها بأنها مخيفة.

الأرقام تتحدث

أخطر من هذا أن يقفز عدد الأميين العرب في سنة واحدة من سبعين مليون أمي إلى تسع وتسعين مليوناً، ويتضاعف عدد العاطلين عن العمل، ويتعاظم هروب العقول العربية وأصحاب الخبرات والمواهب إلى أوربا وشمال أمريكا ومناطق أخرى. بينما تدفق علينا خدم من شرق آسيا وشرق إفريقية بعشرات أضعاف هؤلاء الهاربين من بلادنا. وجاءت أزمة الارتفاع المتزايد في أسعار المواد الغذائية في الأسواق العربية بأضعاف نسبة زيادتها عالمياً متواكباً مع ارتفاع هائل في أسعار العقارات والسلع والخدمات وبنود الإنفاق الأخرى، فسلطت الأضواء على أرقام وحقائق ظل يجهلها أغلبية الناس، فتعرّت وقائع ضعف الإنتاجية، وتسيّب الإدارة، وترهّل الجسم البيروقراطي، وتهلهل التنظيم، وتخلف مناهج التعليم وتطبيقها، وضمور التنسيق والمتابعة. ومن الأرقام المعيبة أن لدينا (٥٠) فنياً لكل مليون عربي، في مقابل (١٠٠٠) فني لكل مليون شخص في البلدان المتقدمة. (د. عاطف قبرصي، التحولات الراهنة ودورها المحتمل في إحداث التغيير في العالم العربي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبو ظبي، عام ٢٠٠٧م. وكذلك: السياسات التكنولوجية في الأقطار العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، عام ١٩٨٥م، ص٢٣٨). فمن كان يتوقع مثلاً أن السلطات الليبية سوف تعلن مراراً أن خمس أبناء الشعب العربي الليبي يعيشون تحت خط الفقر على دخل لا يزيد على خمسة وسبعين دولاراً للعائلة، وأن نسبة البطالة قد تجاوزت ٣٠٪ في هذا البلد الذي كان جنة الباحثين عن فرص العمل من أمم العالم شتى؟! (مجلة الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، الكويت، أغسطس/ آب عام ٢٠٠٧م، ص٣٤). إن كان هذا هو حال ليبيا - إحدى أكبر منتجي النفط في العالم، وإحدى أقل بلدان العالم سكاناً - فأيّ حال بائس يعيشه سواها من أكثر بلداننا؟!.

لعنة غزو العراق واحتلاله سوف تظلّ تلاحق العالم كله، لا الولايات المتحدة فحسب، وهي لعنة لن يقتصر أثرها على الأجيال الحالية فقط، بل سيمتد عدة أجيال قادمة

من يصدّق أن الأردن ينفق على الاستهلاك ١٠٧,٧٪ من ناتجه المحلي الإجمالي، ومع ذلك بلغت نسبة الاستثمارات فيه ٢٧,٦٪ من الناتج المحلي، وبلغ استهلاكه واستثماراته ١٣٥,٣٪ من الناتج المحلي وفق دراسة للكاتب فهد الفانك (Alarab on;10.10.2007). وسرعان ما فسّر الناس هذه الأحجية الاقتصادية قائلين: «فتّش عن أموال اليهود التي تشتري أراضي محاذية لفلسطين المغتصبة ومنشآت أردنية أخرى مباشرة أو من الباطن بأسعار خيالية».

يتزايد عدد العاطلين العرب الباحثين عن عمل بنحو أربعة ملايين عاطل سنوياً، وسوف يبلغ العدد ستين مليوناً خلال بضع سنوات (د. أحمد جويلي، متطلبات الإصلاح في العالم العربي، الأردن، عام ٢٠٠٧م، ص٧٧). وقد بيّنت دراسة دقيقة أن ٢٧٪ من الشباب العرب الباحثين عن عمل قد أمضوا أكثر من خمس سنوات من السعي من دون جدوى (الحياة، ٣٠-٩-٢٠٠٨م).

تساؤلات!!

ويتساءل ثلاثمئة مليون عربي بحقّ: لماذا لم تعد (سهول حوران أهراءات؟ روما) التي تزود أوربا بالقمح الفائض عن حاجة بلاد الشام ولماذا لم تتقدم مقولة (السودان سلة غذاء العالم) خطوةً واحدةً في تحوّلها المأمول من افتراض نظري يدغدغ أحلام السودانيين والعرب، ويخدر عوامل نقمتهم على واقع التخلف والتجزئة واستشراء الفساد والنهب الخارجي والداخلي للموارد الوطنية، إلى تطبيق عملي يخفف من وطأة ذلك الواقع المزري؟ ولماذا تتدفق المليارات من الأموال العربية

على بنوك واستثمارات يدير أكثرها صهاينة سرعان ما ينهبون معظمها في أزمات مفتعلة؟ بل لماذا لا نخجل عندما نقرأ عن عشرة ملايين دولار يدفعها فلان لقتل مطربة، وعشرة ملايين أخرى يدفعها آخر لحفل زواجه من مطربة أخرى، بعدما دفع ثالث ملايين كثيرة من الدولارات تعويضاً عن فسخ خطوبته من المطربة الثانية، وملايين مماثلة يدفعها آخرون بسخاء مقابل ساعات مع هذه المطربة أو تلك من دون قتل أو زواج أو خطوبة؟ بئس المال هذا، وبئس أصحاب مال أمثال هؤلاء، وصبراً جميلاً يا مرابطي القدس وغزة المحاصرة وباقي فلسطين، ويا جوعى العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

علّق رومانو برودي - رئيس وزراء إيطاليا السابق - على أزمة الغذاء في العالم، التي تفاقمت مع مطلع عام ٢٠٠٨م، بقوله: «يحتاج إطعام الناس لحوماً إلى مساحة زراعية تفوق بخمس مرات تلك المساحة التي نحتاج إليها لإطعام الناس حبوباً» (كريستيان سينس مونيتور، ٣٠-٤-٢٠٠٨م)، فهل يصلح ما يوحي به حلاً للعالم كله أو هو لمجتمعات شمال أمريكا وأوربا المتخمة؟

بعدما هجر فرنسيس فوكوياما عصبة المحافظين الجدد الصهاينة، وتخلى معتذراً عن نظريته المتعجلة التي زعمت نهاية التاريخ عند النموذج الأمريكي، لفت بعض مقالاته الأخيرة النظر إلى ما حملته من أفكار أكثر دقةً واتزاناً من تلك النظرية. ففي مقالته (النمو الاقتصادي وحده لا يضمن استقرار العالم)، أكد أنه «مهما يكن فإنه ليس في وسع النمو الاقتصادي وحده أن يؤمن استقرار العالم، تماماً مثلما عجزت العولمة الاقتصادية السابقة عام ١٩١٤م عن الحيلولة دون اندلاع الحرب العالمية الأولى. بيد أن هناك أسباباً معقولة تحمل المرء على الاعتقاد بمغالاتنا في تقدير المخاطر على الاستقرار العالمي» (واشنطن بوست ولوس أنجلس تايمز، ٥-٢-٢٠٠٧م).

لكن اطمئنان فوكوياما لا ينسجم مع وقائع صارخة لها تفاعلاتها وتأثيراتها العميقة: معدل الدخل السنوي للمواطن الأفغاني مثلاً، الذي يعيش ٧٠٪ من شعبه تحت خط الفقر وتحت احتلال أمريكي معاً، أقل من ثلاثمئة دولار؛ فالأفغاني يعمل سنة كاملة مقابل أجر يوم واحد لفرد في دولة غنية.





الحروب تزيد معاناة الأطفال

علّق رومانو برودي على أزمة الغذاء في العالم بقوله: «يحتاج إطعام الناس لحوماً إلى مساحة زراعية تفوق بخمس مرات تلك المساحة التي نحتاج إليها لإطعام الناس حبوباً

التحرر من الأنساق الاقتصادية المقولبة

أكد الخبير الاقتصادي جيفري ساكس Jeffrey Sachs في كتابه: (ثروة مشتركة: اقتصاد لكوكب مزدحم Common Wealth: Economics for a Crowded Planet، منشورات بنغوين، عام ٢٠٠٨م)، ضرورة التحرّر من الأنساق الاقتصادية الكبرى المقولبة التي أفرزتها مدارس الاقتصاد التقليدية، والدخول الجاد في تفاصيل الواقع لتغييره وتصويب اختلالاته؛ فلن يتحقق التخلص من آفة الفقر المستشرية في رأي ساكس من دون وضعه في سياقه العام، والكفّ عن التذرع بادّعاء أن الفقر قدر محتوم لا سبيل إلى تحاشيه. لقد تضافرت عوامل قديمة متوارثة، وأخرى مستجدة، لترسيخ آفة الفقر وتفاقمها



من مظاهر البؤس في الدول الفقيرة

على امتداد العالم، وزيادة بؤس أغلبية البشر، خصوصاً الفئات المجتمعية الهشة. فالأضرار البيئية التي يتزايد خطرها وتدميرها في البلدان الفقيرة، مهددةً الأراضي الزراعية، تقتضي مواجهة قائمة على استحداث بيئة حافزة لتنمية مستديمة سليمة تحافظ على مصادر المياه والغابات، وتحسن إدارتها، وتحدّ من العوامل التي تنفّر المزارعين من الريف، وتغويهم بالاستجابة لمغريات الانتقال إلى المدينة. أكد ساكس أن العلم والتكنولوجيا سلاحان رئيسان للتخلّص من الفقر؛ فترشيد استهلاك المياه عبر تعديل أنظمة الري الزراعي، واستخدام تقنيات الهندسة الوراثية لتحسين مقاومة المحاصيل للجفاف والتحولات المناخية القاسية، والسيطرة على الأمراض والأوبئة الفتاكة التي تهدد البشر والحيوانات والمزروعات، واعتماد برامج مدروسة لحلول ومعالجات تنتقل حسب الحاجة من الإطار المحلي الموضعي إلى الإطار الشامل، وهي خطوات تسهّل توسيع المساحات المزروعة وزيادة إنتاجيتها. وشدّد ساكس على مسؤولية سياسات الولايات المتحدة عن تفاقم الفقر في العالم، ودعاها إلى تغيير سياستها الأمنية والخارجية بالتخلي عن طموحات الهيمنة الأحادية والتفرد بالقرار الدولي، وتقليص إنفاقها العسكري لمصلحة التنمية العالمية، واحترام القانون الدولي، ومعالجة المشكلات السكانية والبيئية، والكفّ عن إثارة التوترات والصراعات.

من السهل أحياناً اقتراح الحلول، لكن تطبيقها شديد التعقيد؛ إذ يفتقر مليار ومئتا مليون إنسان في عالمنا اليوم إلى ماء نظيف للشرب، بينما يستهلك المزارع في الدول الغنية ثلاثمئة لتر من الماء لإنتاج لتر واحد من الحليب. ومن المفارقات عندنا أن بلدان شبه الجزيرة العربية أفقر مناطق العالم في مصادر الماء وأكثرها استهلاكاً له. ولئن شكّلت محطات تحلية ماء البحر حلاً مؤقتاً سمحت الطفرة النفطية به لتوفير الماء، إن هذا حلّ مكلّف طارئ ومحفوف بالمخاطر، وتتآكل تجهيزاته سريعاً، ويزيد ملوحة بحار لا تصبّ فيها أنهار، بل سيول أمطار نادرة.

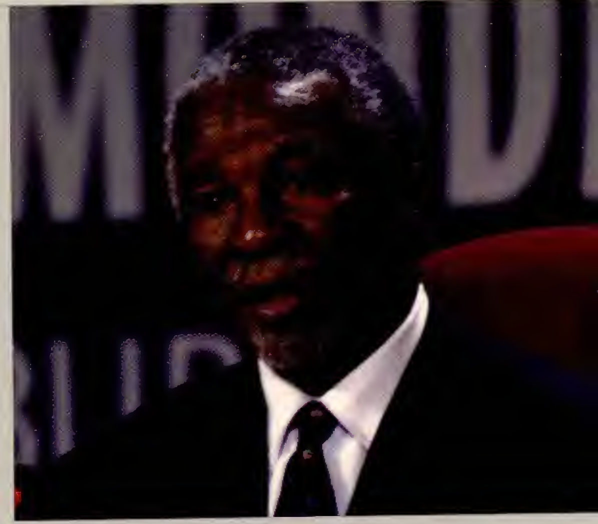
أدان جيفري فريدن Jeffry A. Frieden بشكل مباشر وحاسم سياسة راعي البقر الأمريكية في مواجهة أمم العالم المختلفة على الرغم من تباهيه بها، متوقعاً نهاية النظام العالمي الراهن بقيادته الأمريكية في كتابه الضخم (الرأسمالية العالمية: سقوطها وصعودها في القرن العشرين: Global Capitalism: Its Fall and Rise in the Twentieth Century، منشورات نورتون، عام ٢٠٠٦م). تنبأ فريدين بما حدث لاحقاً من تدهور سعر الدولار، وتفاقم الخلل المالي والتجاري الهائل بين الولايات المتحدة وعمالقة آسيا، وارتفاع جنوني للأسعار، وانخفاض مستوى معيشة الأمريكيين بعد أن عاشوا طويلاً في عالم وهمي سيطرت عليه نزعة استهلاكية شاملة يدعمها أجانب راغبون في

يتساءل ثلاثمئة مليون عربي بحقّ: لماذا لم تعد (سهول حوران أهراءات روما) التي تزود أوربا بالقمح الفائض عن حاجة بلاد الشام؟ ولماذا لم تتقدم مقولة (السودان سلة غذاء العالم) خطوةً واحدةً في تحوّلها المأمول؟



الاستثمار في العملة الأمريكية المقوّمة بأكثر من قيمتها الحقيقية؛ لتتحول القوة الاقتصادية والهيمنة والثروة في العالم عن طريق المستثمرين متعددي الجنسيات من الولايات المتحدة الغارقة في الوهم، والديون، وغطرسة القوة العسكرية، وتدنّي تعليم القوة العاملة، إلى الصين ودول أخرى.

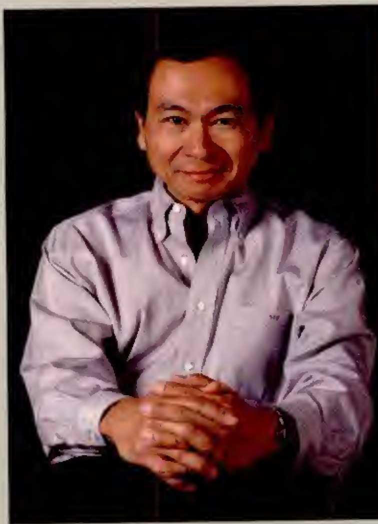
لقد صارت حيازة المال - أياً كانت وسائلها - معيار النجاح والتفوق ومحدّد المركز الاجتماعي، بينما تراجعت قيمة العلم والثقافة في سلم التقويم الراهن لدى معظم الشرائح المجتمعية في عالم الجنوب الذي استهدفته جائحة العولمة. صار العلم والثقافة رديفين للفقر والبؤس، وعنوانين للإخفاق وعدم النجاح في استيعاب متطلبات الانتماء إلى عصر (حرية السوق). ومع تربّع المال على عرش سلّم القيم المعاصر باتت العضلات التي تغرف ذلك المال بكل السبل وتحميه متقدمةً على العقول، وحسم الرصاص والغزو والاحتلال ما جرى افتعاله من صراع مع أفكار وثقافات لا تمجّد العجل الذهبي وسدنته وحراسه، وهكذا انتعش دور الاغتيال والسياط في مواجهة الكلمات، على الرغم من دعاوى الديمقراطية. بهذا نفهم لماذا ختم الصهيوني الأمريكي توماس فريدمان قبل سنوات مقالة له في (نيويورك تايمز) بالقول: «لن تكون هناك فعالية لليد الخفية لاقتصاد السوق من دون يد خفية أخرى تعضدها: إنها القوة العسكرية: فلن يكون ماكدونالد (سلسلة محال الهمبورغر) مربحاً من دون ماكدونالدوغلاس



مبيكي



جيفري



فوكوياما

(الشركة صانعة طائرات الفانتوم الحربية)».

أخذت لعبة الهيمنة والإفقار، حتى إبادة الآخر، أبعاداً غير مسبوقة استخدمت فيها وسائل بدت شديدة الغموض للعامة. كيف لإنسان غير متخصّص أن يستوعب لماذا خسرت الأسهم الصينية في يوم واحد، هو ٢٧-٢-٢٠٠٧م، مئة وأربعين مليار دولار من قيمتها في أكبر خسارة للاقتصاد الصيني منذ عشر سنوات؟ بل كيف استطاعت الأسواق الصينية الانتعاش مجدداً بسرعة خاطفة، فعوّضت بعض خسائرها في اليوم التالي مباشرةً، بينما خسرت بلدان عربية قرابة نصف هذا المبلغ في ساعة واحدة في إثر انهيار أسعار الأسهم والسندات؟!. ولن نتحدث عن خسائر عربية أخرى غير معوّضة منذ أزمة العقارات الأمريكية وتداعياتها، فمن يقف وراء اللعبة؟.

لعنة غزو العراق

شدّد جوزف ستيغليتز - عالم الاقتصاد الأمريكي الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد عام ٢٠٠١م - على أن لعنة غزو العراق واحتلاله سوف تظلّ تلاحق العالم كله، لا الولايات المتحدة فحسب، وأنها لعنة لن يقتصر أثرها على الأجيال الحالية فقط، بل سيمتد عدة أجيال قادمة.

أما دوغلاس فيث، الذي كان ثالث أقوى المحافظين الجدد الصهاينة في وزارة الدفاع الأمريكية، ومن أبرز المحرّضين والمخططين لغزو العراق، فقد قال مؤخراً وهو يتحدث عن صدمته بانهيار ما قد حلم بفرضه على العراق، ثم على جواره: كل ما نفعله هو أننا نتزلج على الدم. لم أتصور قطّ أن اللحظة البابلية لا تزال مهيمنة هناك. وقد اعتاد دوغلاس فيث أن يقول بعنجهية وغطرسة قبل سنوات: «إننا ذاهبون إلى حيث يذهب المستقبل، وسنجرّ الآخرين خلفنا». وهو إذ أقرّ بأن ما أنجزته السياسة الأمريكية الحمقاء هو التزلج على الدم في العراق لم يجد شجاعة الاعتراف بأن هذا الدم قد غطّى وجه العالم بأسره.

لقد وعدت الولايات المتحدة العالم بالحرية عندما برزت قوةً كونيةً إبان الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها، وادّعت يومئذٍ وقوفها مع الشعوب الساعية إلى التحرّر، وحرصها على تصفية الاستعمار. لكنها سرعان ما ابتكرت أساليب حديثة وفائقة الحداثة أيضاً لممارسة الهيمنة والنهب. وقفزت الولايات المتحدة التي تباهت أنها قد تحالفت مع المقاومة الأوربية ضد الاحتلال النازي لتصبح قوة غزو واحتلال تدين المقاومة بالإرهاب، بل لا تتورّع هي نفسها عن ممارسة الإرهاب والإبادة الجماعية ضد شعوب عربية وإسلامية بعيدة منها. هذه الممارسة التي استخدمها أصلاً الاستيطان الأوربي في أمريكا. وإذ تصرّ على لعب دوري الشرطي واللص معاً، مطبقةً المثل الأمريكي Thief in chief؛ فهي لا تكترث بكونها تهدد مصير البشرية بأسرها اليوم، لا مصيرها الذاتي فقط.



الـــرُّؤَى

وقصة الحيَّة من الحياة

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

«قصة عجيبة يغلب في ظني أنها واقعية»

قال أبو عبد الرحمن: حدثتني أَمَةُ الله تُمَيْرَةُ بنتُ عُذَيق (وكانت أستاذةً لي في علوم الحديث، وقرأتُ عليها شيئاً من السيرة النبوية العطرة، وقد تُوفِّيت منذ أسبوع.. أسأل الله تعالى أن يتغمدها بواسع رحمته) خلال ما تلقَّيْتُه عليها قُبيل وفاتها المفاجئة بيوم؛ وذلك بمناسبة قراءتي عن معركة أحد، وقد تطرَّق الحديث إلى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم بقراً تُنْحَر؛ فامتدّ الحديث وتوسَّع عن الرؤيا، وكان مما بحثته رؤيا الحَيَّة (وهي صنف من الثعابين)، وقالت: (هي في الرؤيا من الحياة؛ فمن رآها تدور في أرض فلاة مُجْدبة فذلك تبشير بالمطر الذي هو خِصْب وحياة)، فقلتُ: (هذه منامات ليس لها ضابط). فانطلقت بحديثها العذب عن حقائق الرؤيا وأضاليلها، وبيَّنتْ أن الرؤيا اسمٌ من الفعل الرباعي (أراه)، ومعنى ذلك أن ما يراه النائم إيراء من غيره؛ فقد يكون إيراءً من مَلَك، وإيراء الملك - عليه السلام - حق، وهي من أجزاء النبوة الباقية التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد يكون الإيراء من تلاعب الشيطان، وقد يكون الإيراء شيئاً استحضرته الذاكرة مما فيها من صور، ولكنها متباعدة الأزمان، مختلفة الأمكنة، مختلطة الأشخاص. والنوعان الأخيران هما أضغاث الأحلام، إلا أن الثانية تخويف أو عبث من الشيطان الرجيم، وأما الثالثة فهي مادة خِصْبة للخيال الأدبي شعراً أو روايةً. فاستوضحت منها عن الضابط لهذه الرؤى الثلاث، فبيَّنت أن الرؤيا الحق منضبطة لها رموز تفسِّرها، ولكن لا بدّ لعابر الرؤيا أن يعرف حال من رُؤيت له الرؤيا، وحال الرائي. إذن الرؤيا غير خاصة بالرائي، ولها بيِّنات من شرع الله؛ ففي سورة يوسف بيَّن الله رُؤى حقيقية عَبَرها يوسف عليه السلام. ومن تلك الرؤى ذات الرموز أن الإمام محمد بن سيرين - رحمه الله تعالى - جاءته عجوز وهو يأكل الثريد تسأل عن ابن سيرين، فدلُّوها عليه، ولم تصل اللقمة إلى فمه بعد؛ إذ توقف ليسمع حديثها، فقالت أيها الشيخ: (إني رأيت القمر يدخل في بنات نعش، وقد أزعجتني هذه الرؤيا). وكان أقران ابن سيرين في العلم قد فارقوا الحياة، فقال: (إنا لله وإنا إليه راجعون، لن أعيش أكثر من سبع ليالٍ؛ لأن القمر رمز لعالم يحتاجه المسلمون لم يبقَ في مِصْرِه مَن يُساميه في العلم، ولا



أزكّي نفسي عند الله. وبنات نعش رمز لليالٍ سبع: فإذا دخلها القمر ونَفَذَ منها فذلك بقية عمره). ومات بعد سبع ليالٍ رحمه الله تعالى. وقالت شيختي تُميرة: (لم أقرأ هذا الخبر في كتاب، ولكنني سمعته من شيخ لم يحضرني الآن اسمه، وبعض الرؤى الصادقة ذات رموز عُرِفَتْ بالتَّجْربة: كمن رأى فأرةً تلعب في عُبِّه: فقد جرت التجربة بأنها بنت غير صالحة، والفأرة فُويسقة. فإن لطمها وغابت عنه فذلك دليل على أنها تهتدي، وإن استيقظ وهي تلعب في عُبِّه فذلك دليل التمادي). فقاطعتها بأن الإنسان لا يجوز له أن يقطع بهذه المنامات وإن تبيَّنت رموزها، فيزعج نفسه ويُزعج غيره. وأما ما عَبَره يوسف ومحمد - صلى الله عليهما وسلم - فهما نبيَّان يُوحى إليهما. فقالت: (كيف هذا يا ولدي؟!!.. أليس إبراهيم رأى أنه يذبح ابنه إسماعيل - عليهما وعلى نبينا محمد وعلى جميع أنبياء الله ورسله أفضل الصلاة والسلام - في المنام، فعزم على ذبحه حتى فداه ربه بذبح عظيم). فبيَّنتُ لها أن إبراهيم عليه السلام يعرف من دين ربه أن رؤياه وحي يلزم تطبيقه، ثم كانت العاقبة بياناً من الوحي المطهَّر أن ذلك ابتلاء من ربه. فقالت: (على أي حال، فالرؤيا يظهر صدقها بعد وقوعها، وأما قبل وقوعها فيتداوى بما أمره به الشرع المطهر، فيتفل عن يساره، ويستعيذ بالله من شرِّها، ولا يخبر بها أحداً، ويَعْبُرُها للرائي بالخير، ولا يفسِّرها له بما ظهر له من الرمز إن كانت شراً، ويأمره أيضاً أن لا يخبر بها أحداً؛ فإن تمادى به الوسواس فليردِّد دعاء الطِّيَرة الذي علَّمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك.. لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يُذْهب السيئات إلا أنت.. بيدك الخير، وأنت على كل شيء قدير».

قال أبو عبد الرحمن: هذا الحديث مما كنتُ أحرص عليه عند الطِّيَرة، إلا أنني في هذه العُجالة لم أجد مصدر جملة (بيدك الخير، وأنت على كل شيء قدير)[1]، وهي من كلام الله سبحانه في سورة النساء، وهذا الحديث مما ضعَّفه جمهور العلماء، وحسَّنه قِلة، وهذا ما أعتقده. وإذا كان الحديث حسناً حصل الرجحان بثبوته: فله حكم

اليقين ما ظلّ الرجحان قائماً لم يدفعه أرجح منه. ويرجّح صحة هذا الحديث أنني انتفعتُ به مدى عمري كلما حصل لي شيء من ذلك؛ فإذا اشتدّ الوسواس كرّرت الدعاء بهذا الحديث، فيذهب كل ما في خاطري. ثم إن نصَّه مشرق صحيح المعنى، مسلّم لقدرة الله، مفوّض الأمر له سبحانه، معترف بكمال قدرته ورحمته. وأيضاً، فإنه تعوّذ نفيس موافق لأصول الشرع في الاستعاذة بالله من الشرور. ثم ذكرتْ شيختي تُمَيْرَة مثالاً لضرورة معرفة حال من تُعْبَر له الرؤيا برجلين كلاهما رأى في المنام أنه يؤذّن، فعَبَرَ لهما المفسّر بأن أحدهما يحُجّ والآخر يسرق فتقطع يده، وذلك في مدّتين متباعدتين، فاستغرب السامعون ذلك أنّ فرق بينهما ورؤياهما واحدة، فبيَّن أن الأول رجل صالح ينطبق عليه قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ (الحج: ٢٧)، وأما الآخر فرجل فاسق، فناسبه ما قصّه عن المؤذن في سورة يوسف؛ إذ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (يوسف: ٧٠). فقلتُ: (هذه دلائل واضحة، ولكنني أُفضّل ما تفضّلت به من التداوي بأدعية الشرع الموظفة للرؤيا، ولا أرى أن فيما يفعله العابرون المتعلمون في المحطات التلفازية شيئاً من الحق، بل هو إزعاج للناس، وبلبلة للأذهان، مع أنهم لا يعرفون حال من يعبرون له)، فقالت: (هذا صحيح، إلا أنها إن كانت خيراً فليستبشر بها، وليُبشر بها). ثم أردفتْ بتأييدي على أن الرؤيا من الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وحي معصوم، وذكرت قول عائشة رضي الله عنها: «أول ما بُدئ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءته مثل فَلق الصبح»[٢]، فبيّنت رضي الله عنها أن رؤياه عليه الصلاة والسلام من الوحي، وذكرت تميرة قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ (الفتح: ٢٧)، والله سبحانه علّم يوسف عليه السلام تأويل الرؤيا؛ فهذا التعليم وحي. قال تعالى عن يعقوب يخاطب ابنه يوسف عليهما السلام: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: ٦)، وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: ١٠١). وألمح إسماعيل إلى أن رؤيا أبيه إبراهيم – صلى الله عليهما وسلم – وحي من الله: فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ (الصافات: ١٠٢). وإنما أذكر لك يا أبا عبدالرحمن ما يتعلق ببعض رؤيا الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – من رموز، وما رواه غيرهم من الصالحين، وتفريق الرسول صلى الله عليه وسلم بين الرؤى، مكتفية بما في صحيح البخاري رحمه الله تعالى وهو أصح كتب الحديث[٣]. فقد قال صلى الله عليه وسلم كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[٤]، وقال صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي قتادة رضي الله عنه: «الرؤيا الصادقة من الله، والحلم من الشيطان»[٥]؛ فهذا مَعْلَم على أن صدقها دليل على أنها من الله، وقد تكون للكافر والفاسق موعظة ووعيداً، وأن رؤيا الرجل

الرؤيا يظهر صدقها بعد وقوعها، وأما قبل وقوعها فيتداوى بما أمره به الشرع المطهر، فيتفل عن يساره، ويستعيذ بالله من شرّها، ولا يخبر بها أحداً



الصالح صادقة؛ لأنها جزء من النبوة، وأن الحلم من الشيطان؛ فعلى رجلِ العلم أن يبحث عما يُميِّز حلم الشيطان. وعلَّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نقول ونفعل فيما نراه في النوم؛ فقال عليه الصلاة والسلام كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله؛ فليحمد الله عليها، وليبشِّر بها.. وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ من شرِّها، ولا يذكرها لأحد؛ فإنها لا تضره»[٦]. وحول الرؤيا الكائنة من الله فيما يكره تحقيق نفيس لا يتَّسع هذا المقام له، ومثل ذلك حديث أبي قتادة رضي الله عنه[٧]. وفي خبر أم العلاء رضي الله عنها أنها رأت لعثمان بن مظعون رضي الله عنه عيناً تجري، فعبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمله[٨]. والرمز في هذا واضح؛ لأن العمل الصالح من العمل الجاري بنصّ الحديث الشريف، وعبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم قَدَحَ اللبن بالعلم كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما[٩]. وعَبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم



القميص قصراً وطولاً بالدين كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[١٠]، والرمز في ذلك واضح: لأن الدين ستر المسلم. والعمود في روضة خضراء برأسها عروة أوّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بموت عبد الله بن سلام رضي الله عنه وهو آخذ بالعروة الوثقى[١١]. والرمز واضح من الخضرة، وثبوت العمود، ووجود العروة التي وُصفت بها الشهادتان في الحديث الصحيح وفي آية الكرسي. وهكذا رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنهما في سَرَقة[١٢] من حرير، فاستبشر بزواجه من عائشة رضي الله عنها[١٣]. وهكذا فُسِّر تأويل رسول الله صلى الله عليه وسلم للرؤيا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بانتفاع المسلمين بطول خلافته. قال البخاري: «حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كثير، حدثنا شعيب بن حرب، حدثنا صخر بن جُويرية، حدثنا نافع، أن ابن عمر رضي الله عنهما حدثه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بينا أنا على بئر أنزعُ منها إذ جاءني أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما)؛ فأخذ أبو بكر الدَّلو، فنزع ذَنوباً أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، فغفر الله له.. ثم أخذها ابن الخطاب من يد أبي بكر (رضي الله عنهما)، فاستحالت في يده غَرْباً، فلم أرَ عبقرياً من الناس يفري فَرْيه حتى ضرب الناس بعَطَن»[١٤].

وأما رؤيا الإنذار، التي ينفع الله بها المؤمن، فقد ورد فيها ما رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى: «حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا صخر بن جويرية، حدثنا نافع، أن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: إن رجالاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يرون الرؤيا على عهد رسول الله، فيقصونها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله، وأنا غلام حديث السن وبيتي المسجد قبل أن أنكح. فقلت في نفسي: لو كان فيك خير لرأيت مثل ما يرى هؤلاء.. فلما اضطجعت ليلةً قلتُ: اللهم إن كنت تعلم فيّ خيراً فأرني رؤيا.. فبينما أنا كذلك إذ جاءني ملكان في يد كل واحد منهما مقمعة من حديد يقبلان بي إلى جهنم، وأنا بينهما أدعو الله: اللهم أعوذ بك من جهنم، ثم أراني لَقِيَني ملك في يده مقمعة من حديد، فقال: لن تُراع.. نِعْم الرجل أنت لو تكثر الصلاة.. فانطلقوا بي حتى وقفوا بي على شفير جهنم، فإذا هي مطوية كطيّ البئر، لها قرون كقرون البئر، بين كل قرنين ملك بيده مقمعة من حديد، وأرى فيها رجالاً معلقين بالسلاسل، رؤوسهم أسفلهم.. عرفت فيها رجالاً من قريش، فانصرفوا بي عن ذات اليمين، فقصصتها على حفصة رضي الله عنها، فقصّتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن عبد الله رجل صالح.. فقال نافع: لم يزل بعد ذلك يكثر الصلاة»[١٥]. وفيه رؤيا بشرى له رضي الله عنه. قال البخاري رضي الله عنه: «حدثنا مُعلّى بن أسد، حدثنا وُهَيب، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيتُ في المنام كأن في يدي سَرَقة من حرير، لا أهوي بها إلى مكان في الجنة إلا طارت بي إليه، فقصصتها على حفصة.. فقصَّتْها حفصة على النبي، فقال: إن أخاك رجل صالح.. أو قال: إن عبدالله رجل صالح»[١٦]. وعليك أن تتبع بقية ما ذكره الإمام البخاري رحمه الله تعالى. وأمْرُ الكذب في الرؤيا خطير، قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: «حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي قال: من تحلم بحلم لم يره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل.. ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، أو يَفِرُّون منه، صبَّ في أُذُنه الآنُكُ يوم القيامة، ومن صور صورة عُذِّب وكُلِّف أن ينفخ فيها وليس بنافخ»[١٧].

ثم ذكرت شيختي رحمها الله أضغاث الأحلام، وأنها من ترويع الشيطان وعبثه، وأنها غير منضبطة أو غير معقولة كمن رأى رأسه مقطوعاً ولسانه يتحرك: فهذا محال في البنية البشرية أن يُرى بعد قطع رأسه. وأما النوع الثالث من أضغاث الأحلام، الذي هو نعمة للأدب، فيأتي من حديث النفس في اليقظة وأمنياتها ومخاوفها، ويتلاحم مما مرّ في عمره من صور أشخاص، ومعالم مكانية، وأثاث، وقصص، وإنما جعلها مادة خيالية للأدب أن الخيال هو الذي ركَّبها من عناصر الواقع كما يُركب الفنان لوحته التشكيلية أو تصويره الأدبي شعراً أو نثراً من عناصر الواقع. قلت: هذا كلام جميل مفيد جداً، ولكن ما البرهان على أن الحية رمز للحياة وهي سم قاتل؟!!. فأجابت بأن الرمز مأخوذ من اسمها، وأنه لا شيء أقتل من سم الحية الرقطاء، ثم كانت واقعياً دليلاً على شفاء وسعة رزق، وذلك هو أهم عناصر الحياة بعد تقوى الله. قلت: (أين هو هذا الواقع؟)، فقالت: حدثني شيخي وُرَيق بن عُنَيب، أن الربيعَ بن خريف.. ثم توقَّفت عن الحديث، وعرضتْ عليَّ تأجيله إلى غد؛ لأن الجلسة طالتْ على غير العادة، وكنت آتي إليها بعد شروق الشمس بقليل. وفي غد جئت بعد صلاة الفجر مباشرةً؛ لأنني في أشد الشوق إلى القصة،

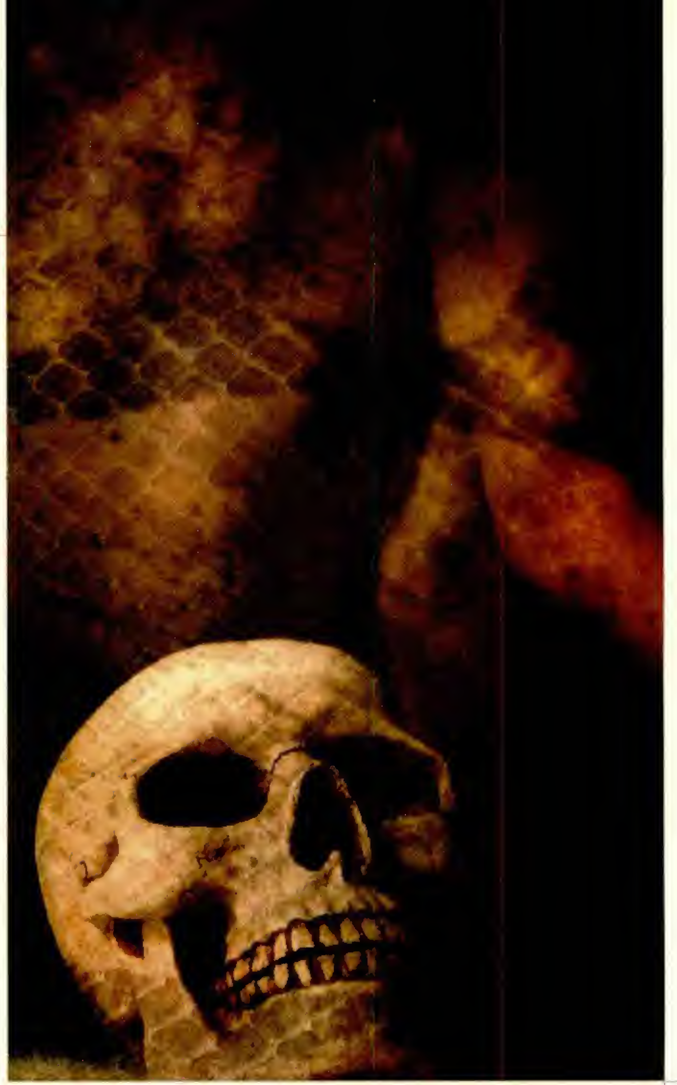
فقالت: حدثني شيخي وُرَيق بن عُنيب، أن الربيع بن خريف كان رجلاً فلاحاً فقيراً تجاوز سبعين عاماً بثلاث سنوات، وسقطت أسنانه السفلى وبعض أسنانه العليا، وكان ذا اعتلال في الصحة، ناحل العود، وذا رعية كبيرة واسعة جداً، هو قيمها الوحيد بعد الله من أولاد وحفدة وأصهار، فجفَّت بئره، وصَوَّحَ زرعه، وهَزُلَتْ سانيته من حمير وإبل (مَعَاويد)، فباع مزرعته وسوانيه، واشترى بثلثي ذلك رزق من يعولهم لمدة عام كامل، وأعطاهم سُدسَ الباقي نقداً يستعينون به - بعد الله - على ما يطرأ من نوائب، وأخذ السدس الباقي معه، وقال: إني ذاهب إلى أقرب هذه المدن ألتمس الرزق، وعندكم ما يكفيكم عاماً، فلا تنتظروني أقلّ من عام. ثم أخذ ما خفّ من لباسه، وركب مع عير[18] إلى أقرب مدينة، وكانت المسافة سبع عشرة ليلة مع الجدّ في السير، وكانوا يردفونه إذا تعب بقدر ما يستريح.. وكانت قريته منعزلة عن القرى، بعيدة عنها، يحيط بها سهوب[19] وأراض بور مُجْدبة. فلما وصل إلى المدينة صادفه أقرب مقهى. ولم يكُ قادراً على الفنادق، ونيته أن يبقى في المقهى حتى يجد له مأوى عند من يعمل عنده أجيراً، فتناول كوباً من الشاي. وسار يمشي على قدمه على الرغم من أنه طاوٍ من الجوع، وسرح في تفكير عريض عما سيعمل في مدينة لم تطأها قدمه، بل حلّ بها لأول مرة من غير أن يكون عارفاً أو معروفاً، وفي أثناء تفكيره وقع في هباءة غير محجَّرة، فانكسر منه ضلعان، فتداركه عابرون، فأخرجوه من الهباءة، وذهبوا به إلى مَصحَّة حكومية، فبقي بها أربعة أشهر يتعاطى العلاج، ويعاني من الألم. فلما خرج متماثلاً للشفاء تعرَّف بعد عُسر على المقهى الذي أودع فيه ثيابه، ونام به يومين سارحاً في تفكير عميق، وكان الجو غير صحي، بل ينتشر في الأفق ما أحصاه الأطباء بألف فيروس، فأصابه أخبثها، وحُمل إلى مصحة حكومية أخرى، وبقي بها أربعة أشهر أخرى يتعاطى العلاج، ويعاني الألم، وقد كاد ييأس من حياته. فلما شُفي أخبره الأطباء أنه اكتسب - بإذن الله - المَنَعَة من ألف فيروس وما يماثلها. ثم ذهب إلى المقهى، وأخذ ثيابه، وسدَّد لهم حقهم، وأضمر أنه لا مقرّ له في هذه المدينة، وصمّم على الرجوع إلى أهله؛ ليعيش بقية عمره منتظراً المدد من ربه، موقناً بالرزق الوسيع، وقد انقطعت به الأسباب. وخلال ذهابه إلى المطار؛ ليبحث عن مركب إلى أقرب بلد إلى قريته، تيامن عن الطريق المسفلت إلى فلاة تحت ظلّ شجرة ليهريق الماء، فنهشته حية رقطاء، فأدركه عابرون وقد أغمي عليه، وفمه يقذف بالزبد، فقتلوا الحية، ولفُّوها في كيس معهم، وحملوه إلى مصحة حكومية ثالثة، وبقي يوماً مغمى عليه. والأطباء يضاعفون عليه أسباب العلاج، واستخراج السم. وكان رفاقه الذين حملوه عن غير سابق معرفة ذوي إنسانية فذَّة، فلازموه في مصحته. وبعد أن أفاق وجد ما بقي من أسنانه العليا يسقط دفعة واحدة، وفوجئ بأسنان جديدة نبتت له من فوق ومن تحت كأحسنِ ما خلق الله من أسنان.. وكان عوده الذي خرجت منه ذريته ويلقبه العامة باسم (حمدان)، وباسم (طفحان)، وهو من فحول الإبل المشهورة عند البادية اليوم، وبنات طفحان من الإبل الصفر الأصيلة.. ولعل التسمية بـ(حمدان) حصلت في الأصل لمحمود الفعل والعاقبة.. كان حمدان قد لزم مرقده منذ عامين، فكان الربيع ينام في فراشه وحده، وعجوزه في فراش أخرى، فإذا بحمدان ينتفض من مرقده كأنه كراع حاش، أو عمود خيمة تلعب بها عاصفة الريح، فاستفزّه الضحك تعجُّباً من قدرة الله سبحانه وتعالى. وقال لرفاقه الذين حملوه: (جزاكم الله عني ألف خير)، ثم سألهم عن مصير الحية، فأخبروه أنهم قتلوها، وأنها معهم في كيس ملفوفة، فقال: «من تمام جميلكم أن تحنِّطوا لي هذه الحية المباركة أحتفظ بها مدى عمري». فحنَّطوها له، وودَّعهم داعياً لهم بكل ابتهال، وانصرف عزمه عن الذهاب إلى قريته في يومه هذا؛ لأنه أُبلغ أن ملك البلاد مُصيِّف في هذه المدينة. وهو رجل لا يؤبه له، ولم يطأ بساط وزير أو أمير أو ملك قط، وطلب أن يدلُّوه على بيت الملك، فوقف عند الباب والحجّاب يسائلونه عن مقصده، فقال: (عندي خبر يهمّ الملك، ولا أحبّ أن يسمعه غيره). فلما استأذنوا الملك أمرهم بإدخاله بعد التأكد من صحة عقله وتفتيشه، فوجدوه رجلاً سوياً. فلما دخل على الملك نسي تحية الإسلام غارقاً في الضحك، تهتزّ أكتافه وترتعد من شدة ما استفزَّه من إغراق في ضحكه. فذُهِلَ الملك، وصار يضحك من ضحكه قبل أن يعرف السبب، فقال: (ما عندك يا وجه الخير؟!!). فلما سكن من ضحكه أخبره الخبر، فكان الملك يُغشَّى

أضغاث الأحلام من ترويع الشيطان وعبثه، وهي غير منضبطة أو غير معقولة كمن رأى رأسه مقطوعاً ولسانه يتحرك؛ فهذا محال في البنية البشرية أن يرى بعد قطع رأسه





عليه من الضحك. ثم عقَّب الربيع بن خريف بقصة حمدان، وقال: (لن أبرح هذه المدينة حتى تزوجوني بكراً)، والملك لا يكاد يستوعب كلامه من شدة الضحك. فلما ذهب عن الملك غَشِيُّ الضحك قال له الربيع: (يا إمام المسلمين، هذه أُعجوبة من قدرة الله جلّ جلاله، وكل نعم الله تمّت عليّ بحمد الله إلا المصاري (النقود)، وعليك حق لأجل هذه البُشرى، فعجل لي بالرزق، وكثّر بما يليق بمقامك، وأما مقامي فليس لي مقام يُذكر، لعل الله أن يجلب لك حية رقطاء كحيتي هذه - وأخرجها محنطة - فترى ظلال السعد تكسوك من كل جانب). والملك كلما أراد أن يتكلم غلبه الضحك، فلما ذهب الغَشِيُّ دعا بربيبة كانت في بيته بكر لم تتجاوز سبعة عشر عاماً، فلما حضرت قال لها الملك: (سلّمي على عمك). فصافحته مغطيةً يدها بطرف جلبابها، فقال لها الملك: (هذا الرجل خاطب، فاكشفي له وجهك)، فامتثلت أمره، والتفت إلى الربيع وقال: (هل تعجبك هذه؟)، فأجابه بعد هنيهة؛ لأنه سارح مبهور من حسنها: (إي والله تعجبني.. هذه هي الموت الأحمر). وقال للفتاة: (ما تقولين أنت؟). قالت: (على الرغم من كبر سنه فوجهه وجه خير، فعلى الرحب والسعة)، فقال الملك:



إذا وصل الحلم إلى المستحيل أو ما يشبه معجزات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فذلك يصدق عليه قول الله سبحانه عن الشيطان الرجيم: (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا)

(لا يغرَّنك كِبَر سنه؛ فسترين من حمدان العجب العجاب). فتزوجها من ليلته، فكانت أم ولده الكبير منها (الخصيب)، وقد كنَّاها بذلك من ليلته. وبعد المباركة له في الزواج سأله عن اسم قريته، فقال الربيع: أنا من القرية الفلانية، يعرفني كل أهلها بحمد الله ديناً وصدقاً، وأعيانهم من خواصّ جندك في الحروب. فتذكرهم الملك واحداً واحداً، وأثنى عليه وعليهم وعلى القرية. وأرسل معه حملة مع عشرين رجلاً بأرزاق كثيرة، وصرة ذهب ضخمة حُملت له على جمل أوضح، وأسرجوا له حصاناً أبيضَ، وأوصاهم بأن يختطُّوا له أرضاً مساحتها خمسة أكيال في خمسة أكيال، وأن يحفروا فيها ثلاث آبار جوفية، وأن يشتروا له إبلاً كثيرة وغنماً، وقال للربيع: (هؤلاء الأربعة من العشرين رجلاً يرعون أنعامك، ويقومون بخدمتها)، وألحق معه أربعة أطباء بيطريين، وقال: (وهؤلاء الستة عشر الباقون يحيون لك الأرض، ويبقون في خدمتك حتى تنتج أرضك ومواشيك رزقاً كثيراً). وأجورهم على الدولة. فودّع الملك شاكراً، وحلّ بقريته بهذه النعم الوفيرة بعد سيرٍ مُدْلج خلال سبع عشرة ليلة. وعاش ثلاثين عاماً، فكان عمره ثلاثة أعوام ومئة عام، متمتعاً بصحة جيدة ونشاط مدارك. ولما بدأوا حفر الآبار، وقبل أن يصلوا إلى الماء، تذكَّر الربيع الحية المحنطة، وقال: (هذه حية مباركة؛ لعل بركتها تنال آبارنا)، فقسمها ثلاثة أجزاء، ورماها في الآبار الثلاث. فتفجرت الينابيع تحفر الأرض أنهاراً، وتخترق ما أمامها من مزارع، ثم تستمر حتى تصل إلى عروق شاهقة من الرمال، فلم تندفن فيها، بل انعطفت يساراً، ومشت أكيالاً طويلة، ثم صادفتها هُوَّة من الأرض عميقة لا يُعرف لوجودها سرٌّ حتى هذه اللحظة، فكان ما ينتهي إليها من الماء يهوي فيها ولا يفيض الماء منها أبداً. وقد قيل: (إن ماءها يعود إلى الينابيع التي هي الآبار - العيون - الثلاث)!. فصارت هذه العيون أنهاراً جارية بعيدة القعر. فأخصبت الأرض. وأصبحت القرية نموذجية في العالم من عظم الزراعة والإنتاج فيها. كما أصبحوا كلهم من المياسير. وهكذا حفدة الربيع وأصهاره.

قال أبو عبدالرحمن: فقاطعتها، وقلت: (كيف يعود الماء من منخَفَضٍ إلى مُرْتفع؟!). فقالت: (إن صحَّ ما قالوه فما من عجب؛ لأن الارتفاع على سطح الأرض، وأما الهباءة[٢٠] فقد تكون على شفير وادٍ مرتفع في العمق ينحدر إلى العين). فما زدتُ على قولي: (إن الله على كل شيء قدير). وأردفتْ شيختي تميرة بأن الربيع لما قدم

إلى القرية زار زوجته الأولى ثاني ليلة، فرأى عليها آثار السرور من هذه النعم الوفيرة التي حصلت لزوجها، إلا أنها مكسورة الخاطر من الضرَّة الشابة الحسناء أم الخصيب. وكان محافظاً على العدل بين الزوجتين، والقسمة لهما، إلا أن الغيرة كانت تأكل قلبها. وبعد تفجر الآبار أنهاراً بليلتين - وكان شديد الحزن من غيرتها وانكسار خاطرها - كان عندها في ليلتها، وقال في نفسه: (تلك الحية المباركة لم يبقَ منها شيء سوى كيستها)، ثم قدَّها من محلّ الخياط: فلفَّ بها وجه عجوزه، وقال: (لعل الله يرتشيك[٢١] برائحة الحيَّة). فانتفضت من الخرقة وقد تحولت إلى أحسن من صورتها وهي شابة وأنْعم، فكأنها بنت سبعة عشر عاماً!!، فكانت تسيل رقَّةً وعذوبة وبضاضة[٢٢]، قد دفنت العافية عروقها، وسقط ما بقي من أسنانها، ونبتت لها أسنان جديدة كأحسن ما خلق الله من الأسنان. وبينما هو شارد الفكر من هذه المعجزة لفَّته على غرَّة بالخرقة، وقالت: (خذ أنت نصيبك)، فعاد مع ما سبق له من نعمة ابن خمسة وعشرين عاماً. فبادر إلى إحسان الوضوء، وأطال سجدة الشكر، ثم أتى أهله في هذه الليلة عدداً من المرات، وبعد عام أنجبت له زوجته ابنه (النَّماء)، ثم صارت الزوجتان تتباريان في الإنجاب، وتحملان بهذا على هذا: حتى بلغ ولده وحفدته ما ينيف على مئتين وألف، منهم سبعمئة من الذكور يسيرون خلفه، ويحفُّون به مدجَّجين بالسلاح. وقدَّ الخرقة نصفين. وجعلهما بطانتين لوسادتيه في البيتين. وفجَّر الناس التُّرع[٢٣] من الأنهار، فكانت كل ترعة نهراً يتفجَّر منه ترعة أخرى، وأقطع الملك الأراضي البور لغير أهل القرية: (لأن أهل القرية عاجزون عن القيام بما في أيديهم، يستأجرون العاملين من البلدان). والتحمت القرية بالقرى على الرغم من أنها بعيدة منعزلة يفصلها مسافات شاسعة، وكثرت الغابات والظباء والسباع والطيور غير الغزلان والطيور التي رُبِّيتْ في المزارع والبيوت.

قال أبو عبد الرحمن: وكانت أستاذتي تُميرة في كل الدروس التي أتلقاها عنها محافظةً على الحجاب على طريقة نساء النبي رضي الله عنهن، فالتفتت إليَّ وقالت: (هل يخامرك يا بني أدنى شك أن هذه الحية الرقطاء واقع حيّ ملموس للحياة صحةً وخصباً ورَغَداً). وأما أنا، فتسمَّرتُ في مكاني، واضعاً سبَّابتي على صدغي في طرف الفود[٢٤]، وإبهامي تحت أُذني. تارةً أتفكر في قدرة الله سبحانه الذي يقول للشيء: (كن)، فيكون، فأقول: (هذه واقعة صحيحة). وتارةً أنظر في مجرى العادة من سنة الله في خلقه، فأقول: (هذه أسطورة تجاوزت في خصوبة خيالها أساطير ألف ليلة وليلة). فلما استعصى عليّ التفكير في هذه القصة أخذني سبات عميق، ولم تُكدِّر عليّ تميرة - جزاها الله خيراً - نومي، فتركتني في نومي، وقامت لشؤونها. وكان زوجها شيخاً كبيراً مُقعَداً، وعندها بنت مطلقة تخدمها في شؤونها، وثلاثة أبناء أكبرهم عمره خمسة عشر عاماً. ثم أيقظتني أذان الظهر؛ لأصلّي وأشاركها غداءها، فصحوت وأنا في ذهول، وبعد الغداء، وقبل أن أودعها، قلت: (يا أستاذتي رعاك الله هل تصدقين هذا الخبر؟ ومن هي عائلة الربيع؟ وما اسم قريته؟ فإني أعرف قرى بلدي، وأعرف أنسابهم. وهل شيخك وُريق بن عُنيب ثقة؟!). فقالت: (أما القرية واسم العائلة فعلمي كعلمك. لم أسمع من الربيع بن خريف غير ما سردت لك. وأما شيخي وُريق بن عُنيب فصدوق صدوق صدوق، ثقة ثقة ثقة.. ما جرَّبنا عليه كذبة قط، ولكنه رجل فيه مرح ودعابة[٢٥]، فإما أن تكون القصة واقعية، وهو الأحرى، وإما أن تكون تصنيفاً خيالياً من مَرَحه ودُعابته ومُلَحه، وهذا الأمر الأخير أستبعده). فقلت لها: (لو صحّ أن الخبر من دعابته فما الذي يحمله على تكلُّف هذا الخيال؟!). قالت: إن شيخي وُريق تشبه حالُه صحةً وفقراً حالَ الربيع في بداية أمره، وهو في سنّ الربيع، والإنسان إذا بلغ هذه المرحلة من العمر حريّ بأحد أمرين:

أولهما: الهجِّيرَى، وهي التخريف الذي يسمِّيه العوام هَذْراة.. وهذه ليست فيه؛ لأنه لا يزال حياً يُرزق يتمتع بقواه.. والهذراة من الهذْر، والهجِّيرَى من هَجَرَ وتَرَكَ الاستقامة والصواب كما هو معنى مادة (هجر)؛ ففي لغة العرب الإهجار الاستهزاء، والهاجرات والمُهْجِرات الفضائح والفواحش، والهُجْر في النوم والمرض والكبر الهذيان، وهو هِجِّيرى وإهْجِيرى وإهجيراء وهِجِّير وأُهْجورة وهِجْرياً. وعن السَّمَر بالفحش وما لا فائدة فيه قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٧)[٢٦].

الرؤيا غير خاصة بالرائي، ولها بيِّنات من شرع الله؛ ففي سورة يوسف بيَّن الله رُؤى حقيقية عَبَرها يوسف عليه السلام

قال أبو عبدالرحمن: وعادة ذي الهجِّيرَى أن يسترجع ما مرّ في عمره من أحداث، ولا سيما في شبابه.

وثانيهما: حلم اليقظة، فإذا وصل الحلم إلى المستحيل أو ما يشبه معجزات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فذلك يصدق عليه قول الله سبحانه عن الشيطان الرجيم: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (النساء: ١٢٠)؛ فلعل وريقاً كان يحلم بهذا الشيء الذي حصل للربيع، فنسج هذه القصة، ولكنني أستبعد ذلك، ولا سيما أن عمر القصة التي رواها لي الربيع لا يتجاوز أربعة أعوام. وحلم اليقظة وحديث النفس في النوم من موارد الأدب الحديث، ولا سيما عند السرياليين والداديين[٢٧].

المــــراجــــع

(١) هذا البحث ضميمة من كتاب لي كبير عن الرُّؤى اشتمل على بحث مطوَّل عن التشاؤم، وفيه تحقيق القول عن هذا الحديث. وقد تقصيتُ في كتابي أحكام الرؤيا وآدابها، ومناقشة ما قاله الفلاسفة قديماً وحديثاً، وكذلك أقوال المتكلمين وعلماء النفس، وحلم اليقظة، وآثار ذلك في الأدب الحديث، ومناقشة رُؤى كثيرة على مدار التاريخ، ومحاولة حصر ما أمكن مما أُلِّف في الرؤى. ولأبي محمد عبد الله بن سعد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي (...-٦٩٥هـ) رحمه الله تعالى (المرائي الحسان)، وهو مجموع الرُّؤى التي رآها بعد فراغه من تأليف كتابه (بهجة النفوس)، الذي شرح به مختصره لصحيح البخاري. طبعت بآخر كتابه بهجة النفوس/ دار الكتب العلمية ببيروت.

(٢) متن صحيح البخاري في فتح الباري للحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى ١٢/٤٤٠/ دار السلام بالرياض/ طبعتهم الأولى عام ١٤٢١هـ.

(٣) قال أبو عبد الرحمن: فرغ علماني مرتزق من كتابه (جناية سيبويه)، وأتبعه بكتاب آخر اسمه (جناية البخاري)، رحمهما الله، وقبَّحه هو، ولم يفعل شيئاً إلا ما يُضحك ذوي العقول من قصور علمه وفكره، ولم يبلغ ما تناوله أجلة العلماء من أمثال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في (هدي الساري)، وهو الجام لحماقات استجدت ككتاب لأحد الغماريين أراد الدفاع عن الحارث الأعور، فتطرق إلى التَّخبُّط في صحيح البخاري.

(٤) المصدر السابق، ص٤٥٣.

(٥) المصدر السابق، ص٤٦١.

(٦) المصدر السابق، ص٤٦١.

(٧) المصدر السابق، ص٤٦٦، ٤٩١.

(٨) المصدر السابق، ص٤٩٠، وص٥١٢-٥١٣.

(٩) المصدر السابق، ص٤٩١، وص٤٩٢، و٥١٧-٥٢١،٥١٨.

(١٠) المصدر السابق، ص٤٩٣-٤٩٥.

(١١) المصدر السابق، ص٤٩٦، وفي ذلك معجزة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ابن سلام - رضي الله عنه - يموت حَتْفَ أنفه.

(١٢) قال أبو عبد الرحمن: هي القطعة من الحرير؛ ولعل وجه اشتقاقها أنها لنفاستها وصِغَرها أكثر عُرضة للسرقة، أو لأن أخْذَها من أصلها على التشبيه بالسرقة.

(١٣) المصدر السابق، ص٤٩٩.

(١٤) المصدر السابق، ص٥١٤.

(١٥) المصدر السابق، ص٥٢١-٥٢٢، و٥٢٣-٥٢٤.

(١٦) المصدر السابق، ١٢/٥٠٤.

(١٧) المصدر السابق، ص٥٣٤.

(١٨) قال أبو عبد الرحمن: العير اسم للقوم وجمالهم التي تحمل المِيرَة.

(١٩) قال أبو عبد الرحمن: السهوب جمع سَهْب، والأصل فيها ما يقتضي متابعة الجري والسير بسرعة واتساع، ثم سُمِّيت المفازة الواسعة سَهْباً. ومن الاتساع في السهوب اشتُقَّ الإسهاب في الكلام، وهو من فنون البلاغة.

(٢٠) قال أبو عبدالرحمن: عُرِفَ الهباءة على حفرة دقيقة التراب لا يصل عمقها إلى ماء، وعمقها قاع من التراب.. وهكذا كانوا يظنونها حتى نفذت منها الأنهار. وفي بلدي شقراء بخيس صعب هباءتان تُعرف إحداهما بـ (العُمّيا)، وقد ذكر قيس بن زهير - وهو أول من رثى قتيله - خصمه زعيم فزارة، وقد قتله قيس في الحرب:

تعلَّم أن خير الناس طُرّاً
على جفر الهباءة ما يريم

(٢١) قال أبو عبدالرحمن: الارتشاء عند العامة اللطف والإنقاذ. أخذوه من (الرشاء) الذي يجذب الدلو بالماء.

(٢٢) قال أبو عبدالرحمن: البضاضة سِمَن وبياض.

(٢٣) قال أبو عبدالرحمن: الترع أفواه الجداول، والأصل فيها لغة الانفتاح والامتلاء.

(٢٤) قال أبو عبدالرحمن: الفَوْدُ معظم شعر اللِّمة مما يلي الأذنين.

(٢٥) قال أبو عبدالرحمن: يظنُّ أحد من عاشرته من الزملاء أن الدعابة للنساء فقط، وهذا وَهْمٌ، بل الدعابة تبسُّط في المرح عام في الجنسين بما يليق بهما.

(٢٦) انظر تاج العروس، ١٤/٤٠٠-٤٠٢/ ط م حكومة الكويت.

(٢٧) قال أبو عبدالرحمن: الدادية مذهب هَدَّامٌ في الأدب الحديث، نَشِط في سويسرا وفرنسا أول القرن العشرين الميلادي، وهو في فوضويته يعتمد عنصراً خافتاً من اللاشعور الذي يظهر في حديث النفس في المنام وفي حلم اليقظة من الأماني والمخاوف، وكلها وساوس، وزامنتها السُّرْيالية، وعانقتها في الهدم، وأفادت من قاذورات فرويد اليهودي، ولكنها توسَّعت في استنطاق اللاشعور. قال جبور عبدالنور في المعجم الأدبي ص١٣٩-١٤٠/ دار العلم للملايين/ طبعتهم الثانية عام ١٩٨٤م: «برز أثر السُّريالية في جميع أنواع الفنون العصرية: في الشعر من خلال إيلوار ودنوس، وبريفير، وشار.. وفي الرواية من خلال بريتون، وارتو، وعينو.. وفي الرسم من خلال مَكْس ارنست، وبيكاسو، وميرو، ودالي.. وفي السينما من خلال لويس بونيل، وفي النَّحت من خلال أرب.. إلخ».

قال أبو عبدالرحمن: وقد كتبتُ في جريدة الجزيرة أقصوصة تألفت لي من حلم من حديث النفس في المنام، وليست من الأدب السريالي؛ لأنني لم أتصرف فيها بزيادة

وحلم اليقظة للفقير المدقِع[٢٨] وذي الطُّموح من الأماني الضخمة كما قال امرؤ القيس في الشعر المنحول:

تلك الأماني تتركن الفتى ملكاً
دون السماء ولم ترفع به راسا[٢٩]

قال أبو عبد الرحمن: تَمَّتْ، وبالخيرات عمَّت، وقد شغلني الحزن مدة أسبوع منذ وفاة أستاذتي تميرة، قدس الله روحها، ونور ضريحها. فلما ذَهبت السَّكْرة، وجاءت الفِكْرَة، سجَّلتُ لقرَّائي القصة كما رويتُها عن تميرة بدون أدنى تصرُّف. والسند صحيح، ولكن مثل هذا الخبر المعاصر، وإن صحَّ سنداً، لا يُقبل إلا بتواتر: لتقارب الديار، ومعاصرة الخبر، وأنه من نوادر الأحداث التي تتواتر ضرورة، والله المستعان.

خيال في اليقظة، ولكنها من موارد الأدب السريالي، وعلى الرغم من أن الأدب السُّريالي عبثي يُحطِّم الثوابت إلا أنه يُستفاد منه في شحذ الخيال؛ لإنتاج أدب مبتكر يستبطن اللاشعور، وينسج منه بشرط أنْ لا يكون المضمون محظوراً ديناً أو كياناً.

(٢٨) قال أبو عبد الرحمن: كأنه لصق بالدقعاء، وهي تراب الأرض، ليس عنده غيره، وهذا مثل مسكين المتْربة.

(٢٩) قال أبو عبد الرحمن: صدقت شيختي رحمها الله؛ فهي من الشعر المنحول، وليس ذلك لسهولة لفظه، وبعد أهل الجاهلية عن الترف الفكري؛ بل لأنه لم يرد بخبر صحيح متَّصل إلى الجاهلية، ولم يَرْوِه الثقات، وإنما تظرَّف به العلماء. قال علي بن ظافر الأَزْدي (٥٦٧-٦٦٣هـ) - رحمه الله تعالى - في كتابه (بدائع البدائه)، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم رحمه الله تعالى/ مكتبة الأنجلو بالقاهرة طبعة عام ١٩٧٠م، ص١٣-١٥: «أخبرني الشيخ الفقيه الأجلّ أبو محمد عبد الخالق ابن زيدان المِسْكي - وكتب لي بخطه - قال: أملى عليَّ الشيخ العلامة أبو محمد بن بري (٤٩٩-٥٨٢هـ) - رحمه الله - قال: لقي عَبيد بن الأبرص امرأ القيس، فقال له عَبيد: كيف معرفتك بالأوابد؟ فقال: ألق ما أحببت، فقال عَبيد:

ما حبةٌ مَيْتةٌ أحيت بميْتها
درداءُ ما أنبتت سنّاً وأضراسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الشعيرة تُسْقَى في سنابلها
فأخرجتْ بعد طول المُكث أكداسا

فقال عبيد:

ما السُّود والبيض والأسماء واحدةٌ
لا يستطيع لهنَّ الناس تمساسا

فقال امرؤ القيس:

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها
روَّى بها من مُحُول الأرض أيباسا

فقال عبيد:

ما مُرتجاةٌ على هولٍ مراكبُها
يقطعنَ طول المدى سيراً وإمراسا

فقال امرؤ القيس:

تلك النجوم إذا حانت مطالعُها
شبَّهْتَها في سواد الليل أقباسا

فقال عبيد:

ما القاطعات لأرض لا أنيس بها
تأتي سراعاً وما ترجعنَ أنكاسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الرياح إذا هبَّت عواصفها
كفى بأذيالها للترب كُنَّاسا

فقال عبيد:

ما الفاجعات جهاراً في علانية
أشد من فيلقٍ مملوءة باسا

فقال امرؤ القيس:

تلك المنايا فما يُبقين من أحد
يكفتن حمقى وما يبقين أكياسا

فقال عبيد:

ما السابقات سراعَ الطير في مَهَل
لا تستكينُ ولو ألجمتها فاسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الجياد عليها القوم قد سبحوا
كانوا لهنَّ غداة الروع أحلاسا

فقال عبيد:

ما القاطعات لأرض الجو في طلقٍ
قبل الصباح وما يسرين قرطاسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الأماني تتركن الفتى ملكاً
دون السماء ولم ترفع به راسا

فقال عبيد:

ما الحاكمون بلا سمعٍ ولا بصرٍ
ولا لسانٍ فصيحٍ يعجب الناسا

فقال امرؤ القيس:

تلك الموازين والرحمن أنزلها
ربُّ البرية بين الناس مقياسا»

قال أبو عبد الرحمن: هذه يسمونها الأوابد أوردها ابن ظافر رحمه الله تعالى في باب (بدائع الأجوبة)، وهو غير الإجازة ص ٦١ (الباب الثاني)، وغير التمليط (الباب الثالث) ص ١٦٧، وغير الباب الرابع.



تاريخ طباعة الكتب العربية في روسيا

عبدالجميل عبدالحق زين الله

قازان - روسيا

يرتبط تاريخ طباعة الكتب العربية في روسيا بالإصلاحات التي أجراها الإمبراطور الروسي بطرس الأول في المجال الاقتصادي، والسياسي، والثقافي. وقد حدثت تغيّرات ملحوظة أيضاً في طباعة الكتب، فإذا كانت الكتب الدينية المسيحية قد طبعت في القرن السابع عشر، فإنه في أوائل القرن الثامن عشر بدأت طباعة كتب البحث العلمي، والكتب التعليمية، ومنها كتب تعليم الحروف (ألف باء)، وعلم الحساب، وغيرها.

ولم يكن في روسيا إلا مطبعة واحدة قبل عام ١٧١١م، وكان مقرّها في موسكو. وفي هذا العام بدأ العمل بالمطبعة الثانية في سان بطرسبرغ. وفي الربع الأول من القرن الثامن عشر فُتحت المطبعة الثالثة في موسكو، وعُرفت باسم «المطبعة الوطنية». وفي هذه المطبعة خاصةً تم تصميم الخط العربي. وعلى أساس موادّ هذه المطبعة وأجهزتها تمّ إنشاء المطبعة المتنقلة لبطرس الأول، التي سُمِّيت مطبعة الإمبراطور التركية، وطُبعت فيها أول نسخة بالخط العربي. وقد كُلِّف ديمتري كانتيمير تنظيم المطبعة المتنقلة وإدارتها، وقام بنفسه بتصميم الحروف العربية ورسمها.

عهد بطرس الأول

وفي عهد بطرس الأول بدأ إصدار مطبوعات بالخط العربي، وظهر أول كتالوج للكتب بالخط العربي في روسيا في بداية القرن التاسع عشر، وقام بإعداده العالم المشهور دورن، وطُبع باللغة الألمانية. وقد اشتغل دورن كثيراً بدراسة المطبوعات العربية، واحتوى الكتالوج على المطبوعات التي كانت محفوظةً في متحف آسيا بأكاديمية روسيا للعلوم. وللأسف، فإن المعلومات عن الكتب المطبوعة في هذا العمل (الفهرس)، خصوصاً ما تتعلق بتسمية المطابع، تحتوي على كمّ كبير من الأخطاء.

وقد استفاد سيمرنوف من تجربة دورن حينما تعهّد المطبوعات في مدينة قازان، ولكنه كان أقلّ دقةً في التنظيم المكتبي للمصادر.

ويجب علينا أن نشير هنا إلى أن كتالوج دورن كان يحتوي على ٥٣٦ كتاباً باللغة العربية، وطُبعت هذه الكتب كلها في مدينة قازان من عام ١٨٠١ إلى عام ١٨٦٦م.

وفيما يتعلق بكتالوج دورن، كتب سيمرنوف كثيراً من المقالات النقدية الخاصة بالمطبوعات الروسية، وكان نقده الأساسي موجهاً إلى الرقابة على الكتب الإسلامية.

وفي عهد بطرس الأول تحوّلت روسيا إلى إمبراطورية، وحاولت أن تفرض سيطرتها على البحر الأسود، لكنها قُوبلت بمقاومة الدولة العثمانية. وقامت الحرب، وأصدر بطرس الأول عام ١٧١١م بياناً اتّهم فيه تركيا بنقض معاهدة السلام المُوقَّعة بين البلدين عام ١٧٠٠م. وقد تُرجم محتوى البيان بشكل مختصر إلى لغة المسلمين في روسيا (اللغة التتارية)، وتمّت طباعته في مطبعة الإمبراطور المتنقلة بالخط



العربي. ونلاحظ من نصّ البيان أنه طُبع للمسلمين التتار الذين كانوا يؤدّون الخدمة العسكرية للقيصر الروسي، وكل المسلمين التتار في روسيا عامةً، وكان ذلك لمعرفة أسباب الغزو الروسي ضد تركيا.

وظهر أول حرف مقتبس من الحروف العربية في لغة مسلمي تتار روسيا في عام ١٧٢٢م، وكان هذا مرتبطاً برحلة بطرس الأول إلى إيران.

وفي عام ١٨٤٩م، عمل يوسف جوتولد في جامعة قازان، وقام بالإشراف على المطبعة التي كانت تطبع المؤلفات العربية، وكانت تنال شهرةً واسعةً بين الشعوب الإسلامية في روسيا.

وفي الحقبة التي امتدت من عام ١٨٠٢م إلى عام ١٨٩٨م، تمت طباعة أكثر من ١٤٤ كتاباً باللغة العربية. وقد قام يوسف جوتولد بدور كبير في الرقابة على المطبوعات الشرقية في مدينة قازان، وقام بإعداد كتابين باللغة العربية.

وفي الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، بدأ التطور العلمي فيما يتعلق بالعلوم العربية، والاستشراق عامةً. وكان ديمتري كانتيمير عالماً مشهوراً في تاريخ الإسلام؛ فقد أجاد اللغتين العربية والفارسية، إلى جانب معرفته عدداً من اللغات الأوربية، كما

أصدر بطرس الأول عام ١٧١١م بياناً اتّهم فيه تركيا بنقض معاهدة السلام الموقّعة بين البلدين و تُرجم محتوى البيان بشكل مختصر إلى لغة المسلمين في روسيا (اللغة التتارية)

استخدم الآلة الكاتبة في الكتابة العربية، وأجاد الخط العربي.

ولكن المطبعة المتنقلة لبطرس الأول توقفت، وانتقلت كل مواد الطباعة إلى مدينة أستراخان؛ بسبب ثقل آلات مطبعة بطرس الأول.

وفي عام ١٧٢٣م، استطاع المهندسون نقل الخط العربي إلى موسكو، وتم تسليمه إلى مطبعة الإدارة الدينية المسيحية (سينود). ولم تستخدم هذه الخطوط فيما بعد في روسيا. وطُبعت الكتب العربية التي كانت تُطبع بالخط العربي بخطوط رسومية أخرى.

هدف بطرس الأول

ما الهدف - إذاً - الذي أراده بطرس الأول عندما أسّس المطبعة بالخط العربي؟

لا شك أن هناك هدفاً واحداً، هو الحصول على تأييد المسلمين للحرب ضد تركيا عن طريق الكلمة المطبوعة. وليس من الصواب أن نظنّ أن إمبراطور روسيا قد اهتم بتعليم المسلمين في روسيا.

وهنا يجب أن نشير إلى أن المطبوعات بالخط العربي قد ظهرت بالمصادفة في الربع الأول من القرن الثامن عشر، واختفت في عام ١٧٢٢م؛ فالمؤرخون في روسيا يشيرون إلى أن الخط العربي ظهر في المطبعة الأكاديمية في روسيا مع بداية

> من أول الكتب العربية التي طُبعت في جامعة قازان عام ١٨٠٩م كتاب «خاصية أسماء أصحاب بدر الشهداء»، وقدم فيه المؤلف أسماء أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزوة بدر

إنشائها، ولم تكن الخطوط العربية في المطابع الأخرى معروفةً في روسيا حتى الربع الثالث من القرن الثامن عشر. ولم يُستخدم الخط العربي، الذي كان موجوداً في المطبعة الأكاديمية، في طباعة الكتب العربية حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر، لكنه استخدم من وقت إلى آخر في طباعة مطبوعات المناسبات الخاصة والرسائل الرسمية للسفراء والضيوف من البلدان العربية الذين زاروا أكاديمية علوم آسيا.

أبو العلاء ولزومياته

وفيما يتعلق بتعليم الأدب العربي في روسيا في القرن التاسع عشر، هناك كتاب خلماجاروف (مختصر تاريخ الأدب)، الذي طُبع في سان بطرسبرغ عام ١٨٨٢م، وكتاب جرجس (مختصر تاريخ الأدب العربي). ومن بين الكتب العربية التي اشتهرت في إمبراطورية روسيا مؤلفات الشاعر والفيلسوف أبي العلاء المعري. كما ترجم المسلمون التتار من العربية إلى اللغة التتارية كثيراً من إنتاج هذا الشاعر، واحتلّ كتابه «اللزوميات» مكانة خاصة، وترجمه الصحفي موسى جار الله بييكيف - العالم الكبير المشهور في العالم الإسلامي، وعالم الاجتماع، والتربوي - إلى اللغة التتارية، وقام في البداية بالترجمة الحرفية للشعر العربي، ثم ترجمها إلى التتارية سطراً سطراً، وأحياناً كان يكتب تعليقات إضافية.

وفيما يتعلق بالأبيات التي تتناقض مع الإسلام، كان موسى بييكيف يهملها، أو يكتب تعليقات ليضفي عليها روح الإسلام ومبادئه. وكان الاتجاه نفسه عند رضاء الدين فخر الدين، الذي نحا منحى جار الله.

وكان مسلمو روسيا يعرفون جيداً مؤلفات أبي حامد الغزالي؛ مثل: رسالة مهمة المسلمين، وجنان الجنان، وأيُّها الولد، وإحياء علوم الدين، وغيرها من أعماله الدينية.

وطُبعت في قازان في القرن التاسع عشر مؤلفات الزمخشري عدة مرات، مع تعليقات جمال الدين محمد الأردبيلي عبدالغني. وكانت له مؤلفات أكثر شهرةً عند مسلمي روسيا؛ مثل: مقتطفات من نوابغ الكلم. كما طُبعت في مطابع قازان وأورنبرج الكتب الآتية: قصيدة البردة للإمام البوصيري، وتفسير الجلالين، ولباب النقول في أسباب النزول، ومختارات النابلسي في كفاية العلوم.

وأسِّست في قازان عام ١٨٠١م مطبعة لطباعة الكتب باللغات الشرقية: التركية، والفارسية، والعربية، وغيرها. وفي المدة من عام ١٨٠١م إلى عام ١٨١٠م، طُبع في قازان نحو ٢٠ كتاباً باللغة العربية، منها: المصحف الشريف، وبعض الكتب الإسلامية؛ مثل: شرائط الإيمان، وهو من كتب العبادات. وكانت هذه الكتب تدرَّس للتلاميذ في المدارس. وطُبع من كتاب (شرائط الإيمان) في هذه الحقبة أكثر من مئة ألف نسخة.



من البدايات إلى الصحوة

ومن أول الكتب العربية التي طُبعت في جامعة قازان عام ١٨٠٩م كتاب «خاصية أسماء أصحاب بدر الشهداء»، وقدم فيه المؤلف أسماء أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزوة بدر. وبعد عام ١٨٢٩م، طُبع القرآن الكريم مرتين، وكذلك طُبعت سور متفرِّقة منه. وفي عام ١٨٤٥م، بدأت طباعة الكتب العربية المشهورة في مطبعة جامعة قازان: مثل: «الحزب الأعظم المبارك»، الذي أعدَّه علي بن سلطان محمد القاري، و«مختصر الوقاية في مسائل الهداية»، وهو مختصر لكتاب شرعي للدين والحياة، وقد طُبع هذا الكتاب أربعين مرة. ومن الكتب الدينية التي طُبعت كتاب «الفقه الأكبر» للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت.

وفي عام ١٨٤٦م، طُبعت «رسالة في العقائد الإسلامية»، و«دلائل الخيرات» لأبي عبدالله محمد بن سليمان السملالي الجزولي، و«تحفة الملوك» لأبي بكر محمد حسن الرازي، وغيرها.

إضافةً إلى ذلك، انتشرت في الأربعينيات من القرن التاسع عشر كتيِّبات الأدعية الصغيرة، ويمكن القول: إن ذلك أحدث صدى قوياً كالانفجار في نفوس الناس، وكانت هذه الأعمال المطبوعة رداً على النشاط التبشيري المسيحي ضد مسلمي روسيا.

وفي بداية عام ١٨٣٢م، انتشرت طباعة الكتب الإسلامية في قازان، وأورنبرج، والقرم، وأوفا. وكانت هذه الحقبة بمنزلة صحوة في كل روسيا؛ بسبب كثرة المطابع، وتطوّر أجهزتها. وكان تطور الطباعة بالخط العربي في قازان تحت تأثير مدرستين في الطباعة: المدرسة الشرقية، والمدرسة الغربية. وقد ساعد على ذلك موقع قازان الجغرافي عند ملتقى الشرق والغرب، وموقعها التاريخي والثقافي.

وكانت الحكومة القيصرية المسيحية تراقب صحوة النشاط المطبعي الإسلامي وتطوّره، فاتّخذت وزارة الداخلية عدداً من القرارات لوقف طباعة الكتب الإسلامية والدينية.

وبدأت المطابع الخاصة بطباعة الكتب الإسلامية في المدة من عام ١٨٤٦ إلى ١٨٤٩م؛ فقامت المطبعة الخاصة لـ«شيفتس» بطباعة عشرة كتب تقريباً باللغة العربية. وقامت المطابع الخاصة الأخرى بطباعة نحو خمسين كتاباً تقريباً. لذلك تمّ في النصف الأول من القرن التاسع عشر طباعة ١٥٠ كتاباً باللغة العربية، وأكثر من ٧٠ كتاباً باللغة العربية والتتارية معاً. وطُبع في مطابع سان بطرسبرغ ٤٥ كتاباً من المراجع العلمية الإسلامية.

وطُبعت في مطبعة جامعة قازان في أواسط القرن التاسع عشر كتب للمؤلفين الإسلاميين: مثل: «خلاصة الحقائق» لأبي القاسم الفارابي، و«مختارات الحديث»، و«أيُّها الولد»، و«مختارات من الأدب العربي»، و«العقائد المنظومة»، و«تحفة الملوك»، وكتاب التجويد المسمى بـ«تحفة الأولاد»؟ كما طُبعت مؤلفات دينية للغزالي، والسمرقندي، والزيلي.

وفي القرن التاسع عشر، أصبحت المطبوعات العربية تحت رقابة الكنيسة المسيحية. وفي الستينيات بدأ الهجوم العنيف على الكتب

الإسلامية؛ ظناً من رجال الكنيسة أنها السبب الأساسي وراء عدم نجاح نشاطهم التبشيري. لذلك كثرت طباعة الكتب التبشيرية، التي بدأت تنافس الكتب الإسلامية. وحاول رجال الكنيسة عرقلة نشاط الناشرين المسلمين، فأصبحت طباعة الكتب الإسلامية أمراً صعباً، ولكن مع ذلك زادت تجارة الكتب الإسلامية.

وفي عام ١٨٨٠م، طُبعت الروايات الصوفية: مثل: «بستان العارفين» لأبي الليث السمرقندي، وكتب الفقه؛ مثل: «جامع الرموز» لشمس الدين محمد الكوخستاني، و«الهداية وحاشيتها» لبرهان الدين المرغناني. كما طُبع في هذه الحقبة: «مقدمة النحو» بشرح عبدالله، والكتاب التعليمي في القواعد النحوية «استفتاح» لأحمد هادي مقصودي، و«الحواشي الأزهرية في حلّ ألفاظ المقدمة الجزرية»، و«الرسالة الوافية في العلل والأبنية».

دور جامعة قازان

وفي أوائل القرن العشرين، ازداد عدد الكتب العربية المطبوعة في مدن الأقاليم، وكان الدور الأكبر في ذلك لمطبعة جامعة قازان، التي طُبع فيها في تلك الحقبة أكثر من ٢٠٠ كتاب. وعقب الثورة الروسية الأولى، أُنشئت المطابع في مناطق عاش فيها المسلمون التتار، وكانت أورنبرج مركزاً من مراكز الطباعة الإسلامية، وطُبع فيها أكثر من ٢٠ كتاباً عربياً.

وفي عام ١٩١٣م، أنشئت مطبعة في مدينة أستراخان، طُبع فيها تسعة كتب باللغة العربية. وفي المدة من عام ١٩٠٠م إلى عام ١٩١٧م، طُبع في مطابع قازان المختلفة أكثر من ٢٠٠ كتاب باللغة العربية، كما طُبع في مدن أخرى أكثر من ١٢٠ كتاباً. وكان الكتب التي طُبعت في قازان، وموسكو، وسان بطرسبرغ، وأوفا، تحتوي على العلوم الإسلامية والأدبية المختلفة.

ومن بين الكتب المشهورة بين مسلمي روسيا، التي تبيّن اتجاهات البحث العلمي وطرائق التعلم، كتاب «تعليم المتعلّم» لبرهان الدين الزرنوجي، الذي كان تلميذاً لبرهان الدين المرغيناني، وكذلك «أيُّها الولد» للإمام الغزالي، الذي يعدُّ كتاباً في التربية والأخلاق وطرائق التعلم. أما في مجال الأدب العربي، فقد تداول المسلمون نماذج من الأدب العربي القديم (الكلاسيكي) من القرن الثامن حتى القرن الثاني عشر الميلاديين، وكذلك نماذج من الأدب العربي في العصور الوسطى من القرن الثالث عشر حتى القرن الثامن عشر الميلادي.

وفي المدة من عام ١٨٠١م إلى عام ١٩١٧م، طُبع في مطابع روسيا نحو ٢٠٠٠ كتاب بالعربية الفصيحة، و١٦٠٠ كتاب بالعربية والتتارية معاً، و٢٠٠ كتاب بالعربية والفارسية معاً.

ونجد في الكتب التي طبعها المسلمون التتار في قازان عادات الكتب التتارية المخطوطة وتقاليدها المقتبسة من التقاليد العربية. ويُلاحظ في المطبوعات العربية الاهتمام بقيمة الكلمة من خلال اختيار النصوص، وطريقة شرحها؛ فالكتاب طريقة للعبادة، وشرح لمعجزة القرآن، وحكمة فلاسفة العالم الإسلامي. وهذا التقدير أو الاحترام للكلمة المكتوبة في كل المؤلفات المطبوعة، وهذه الأفكار وُلدت من العادات والتقاليد العربية. إن كل المصطلحات التي ترتبط بالكتب المطبوعة نُقلت من التقاليد العربية.

أخبار

مؤتمر الناشرين العرب الأول بالرياض
يناقش مستقبل صناعة النشر

برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز، وبالتعاون مع وزارة الثقافة والإعلام في المملكة العربية السعودية، وجمعية الناشرين السعوديين: عقد اتحاد الناشرين العرب مؤتمره الأول تحت عنوان: (مستقبل صناعة النشر في العالم العربي) يومي ١٧ و١٨ شوال سنة ١٤٣٠هـ/ ٦ و٧ أكتوبر عام ٢٠٠٩م، وذلك في مركز الملك فهد الثقافي بمدينة الرياض.

وافتتح المؤتمر الدكتور عبد العزيز بن محيي الدين خوجه - وزير الثقافة والإعلام - الذي ألقى كلمة الافتتاح نيابةً عن خادم الحرمين الشريفين في حضور أكثر من ٢٥٠ مشاركاً من الناشرين والكتاب والمفكرين والإعلاميين، وتناول أهمية دور النشر في الحركة الثقافية العربية وتطورها.

وألقى صاحب السمو الملكي الأمير تركي الفيصل - رئيس مجلس إدارة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرئيس الفخري لجمعية الناشرين السعوديين - كلمةً أشاد فيها بجهود الناشرين العرب، وطالبهم بالعمل الجاد والمستمر للارتقاء بمستويات القراءة في العالم العربي.

وقال الدكتور محمد عبد اللطيف: رئيس اتحاد الناشرين العرب: إن المؤتمر كان مجرد أمنية تحوّلت - بفضل الله - إلى حقيقة ملموسة عاشها الناشرون، وتفاعلوا معها.

وتناولت كلمة الأستاذ هيرمن إسبرويتس - رئيس اتحاد الناشرين الدولي - أهمية مواكبة الناشرين العرب حركة النشر العالمية المتصاعدة باستمرار.

وأشار الأستاذ أحمد فهد الحمدان - رئيس جمعية الناشرين السعوديين - في كلمته إلى الجهود التي بُذلت من أجل إنجاح المؤتمر، وقدّم شكره إلى الحاضرين والجهات المشاركة في التنظيم والرعاة الإعلاميين، ثم تمّ تكريم بعض المشاركين والمنظمين.

وقد شهدت جلسات المؤتمر تقديم ٢٩ ورقة عمل وبحث في ١٠ محاور أساسية دار حولها المؤتمر، بحضور ما يزيد على ١٥٠ مشاركاً في الجلسة الواحدة، تناقشوا وتفاعلوا مع ٣٩ متحدثاً متخصّصاً في موضوعات المؤتمر بأكثر من ١٠٠ مداخلة، وعدد من الاقتراحات العملية.

جاءت الجلسة الأولى في اليوم الأول بعنوان: (حرية النشر في العالم العربي)، وأدارها د. عبد الله بن ناصر الحمود (السعودية)، وتحدث فيها كلّ من: محمد عدنان سالم (سورية)، وعلي حرب (لبنان)، وإبراهيم المعلم (مصر). ودارت الأبحاث والمناقشات حول أهمية النشر، وحرية تداول المعلومات والعلوم والمعارف، وانتقال الكتب بلا حدود، وأوصت بمخاطبة كل الجهات المعنية من أجل إلغاء الرقابة، وإزالة العقبات أمام انتقال الكتاب.

وأدار الجلسة الثانية (تسويق وتوزيع الكتاب في العالم العربي) محمد علي الخضير (السعودية)، وتحدث فيها: يانز باميل بورقة أعدّها د. جيرهارد داست (ألمانيا)، ود. أحمد طاهر (مصر)، وبشار شبارو (لبنان). وأوصت بضرورة عمل دراسة لإنشاء شركة توزيع عربية أو شركات؛ للتغلب على مشكلات توزيع الكتاب بآليات جديدة تتواكب مع ما يحدث في العالم المتقدم.

وكانت الجلسة الثالثة عن (حماية حقوق الملكية الفكرية) وأدارها عبد الرحيم مكاوي (السودان)، وتحدث فيها كل من: د. يونس عرب (الأردن)، وعبد الله العصيمي (السعودية)، وأحمد فهد الحمدان (السعودية). وتناولت موضوعات كثيرة، وقدّمت اقتراحات كثيرة لحماية حقوق الملكية الفكرية، منها: أهمية تدريس منهج للملكية الفكرية في المدارس، ونشر كتب ومقالات وموادّ في وسائل الإعلام المختلفة، وإنشاء صندوق لتمويل قضايا الدفاع عن حقوق الناشرين ضد عصابات القرصنة، والعمل على تفعيل القوانين التي تحمي الحقوق وتتيح المعلومات.

وكانت الجلسة الرابعة عن (النشر الإلكتروني في العالم العربي) وتحدث فيها: د. عادل خليفة (مصر)، ومحمد عليوة (مصر) وجابر النقيب (السعودية)، وأدارها محمد مولودي (الجزائر). ومن المقترحات المقدمة دعوة المستثمرين للدخول مع الناشرين في مشروعات النشر الإلكتروني، وعمل آلية جماعية للتعامل مع (جوجل) وغيره من مؤسسات النشر عبر الإنترنت، وإنشاء مشروع لرقمنة الكتاب وتحويله من خلال كيان اقتصادي قوي،

وتدقيق الأرقام والإحصائيات المتداولة في مجال النشر.

وشهد اليوم الثاني مناقشة ٦ محاور مهمة، بدأت بالجلسة الخامسة حول (العلاقة بين الناشر والمؤلف)، وأدارها محمد السباعي (سورية) وتحدث فيها: حمد القاضي (السعودية)، وفتحي البس (الأردن)، والنوري عبيد (تونس). وأوصت بأهمية وضع مقترحات للارتقاء بالعلاقة بين الناشر والمؤلف؛ مثل: عمل عقود نموذجية، وتفعيل القوانين الإدارية اللازمة لضبط هذه العلاقة، وتدعيمها لمصلحة الطرفين.

وفي الجلسة السادسة (مشكلات الترجمة في العالم العربي) دارت مناقشات ساخنة بين المشاركين والمتحدثين: أبو بكر باقادر (السعودية)، وحسام الخطيب (أمريكا)، ومحمد سعيد دباس (سورية)، وركزت في ضرورة تفعيل العلاقات مع الهيئات المعنية بتدقيق الترجمة؛ لضبط أعمال الترجمة، وتصنيف مستويات المترجمين، وطالبت الحكومات العربية بدعم العاملين في هذا المجال.

أما الجلسة السابعة (معارض الكتب العربية)، فقد أدارها عبد الله الشائع (السعودية)، وتحدث فيها كل من: عبد العزيز العقيل (السعودية)، ومحمد غياث مكتبي (سورية)، ومحمد حسن إيراني (لبنان). وأوصت الجلسة بإقامة هيئة تنسيقية بين إدارات المعارض العربية لتنسيق مواعيد المعارض، وتشجيع إنشاء معرض افتراضي عبر الإنترنت يتم تحديثه باستمرار.

وفي الجلسة الثامنة (كتب الأطفال)، التي أدارها محمد عدنان سالم (سورية)، وتحدث فيها كل من: محمد عبد اللطيف (مصر)، وخالد البلبيسي (الأردن)، وإبراهيم المعلم (مصر)، فقد أوصت بمخاطبة الجهات الداعمة (المانحة) بدعم تجارب ناشري كتب الأطفال؛ لأنها الأساس والاستثمار الحقيقي في المستقبل، والتعاون مع مديري المعارض العربية لتخصيص أمكنة لائقة في المعارض العربية لناشري كتب الأطفال.

أما الجلسة التاسعة (نشر الكتاب المدرسي)، فأدارها ضو تيبار (ليبيا)، وتحدث فيها: خالد البلبيسي (الأردن)، ومحمد رشاد (مصر)، وطارف عثمان (لبنان)، وركزت في هذا النوع المتخصّص من النشر، الذي يعيش أزمةً ما بين الاحتكار الحكومي والتعامل الخاطئ مع التجارب المنقولة. وأوصت الجلسة بضرورة تشكيل لجنة من الناشرين العرب لعمل دراسات وبحوث حول هذه الصناعة الضخمة، وتنظيم مؤتمر عربي لتطوير صناعة الكتاب المدرسي.

وكانت الجلسة الأخيرة حول (مستقبل صناعة النشر)، وأدارها أحمد فهد الحمدان (رئيس جمعية الناشرين السعوديين)، وتحدث فيها كلٌّ من: هيرمن إسبرويتس -رئيس اتحاد الناشرين الدولي- ومحمد عبد اللطيف-رئيس اتحاد الناشرين العرب- وإبراهيم المعلم-نائب رئيس اتحاد الناشرين الدولي-ودارت حول التحديات التي تواجه مستقبل صناعة النشر في العالم عامة، والعالم العربي خاصة، من زوايا التكنولوجيا وسياسات النشر، وأوصت بضرورة التفاعل مع المتغيرات العالمية؛ مثل: الكتاب الرقمي، وتطوير اقتصاديات المهنة، وتنوع الإنتاج المعرفي.

واختتم المؤتمر أعماله بتوجيه الشكر إلى خادم الحرمين الشريفين على رعايته المؤتمر، وإلى المنظمين والرعاة والفريق التنفيذي.

هيلاري مانتل تنال جائزة بوكر عن (ذئب الصالة)

نالت الأديبة البريطانية هيلاري مانتل جائزة بوكر عن روايتها (ذئب الصالة)؛ استناداً إلى عظمة الكتاب في حدّ ذاته، وجرأة السرد، وكونها رواية حديثة، لكن أحداثها تدور في القرن السادس عشر حسب تصريح جيمس نوتي؛ رئيس لجنة التحكيم.

وقال إيون تريوين - المدير الأدبي لجوائز بوكر: إن رواية (ذئب الصالة) باعت نحو خمسين ألف نسخة في بريطانيا بحلول نهاية سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٩م بعد أشهر من صدورها، وهو عدد مرتفع للنسخة المجلدة بغلاف سميك، التي تكون عادةً غالية الثمن.

وتعدّ جائزة بوكر إحدى أعرق الجوائز الأدبية في العالم، وبدأ منحها في عام ١٩٦٩م، واستمر هذا التقليد سنوياً، وهي تُعنى بأعمال الأدباء من دول الكومونولث أو جمهورية إيرلندا.

وتنافس على الجائزة هذا العام نخبة من الأدباء، ووصل إلى القائمة النهائية الروائي الجنوب إفريقي جيمس ماكسويل كوتزي بكتابه: (وقت الصيف)، والروائية البريطانية أنتونيا سوزان بيات بكتابها: (كتاب الأطفال)، ورواية (المتاهة المتسارعة) للكاتب البريطاني آدم بولدز، الذي يعدّ أصغر المرشحين للفوز بالجائزة (٣٤ عاماً).

وهيلاري مانتل مولودة في ديربيشير الإنجليزية في السادس من تموز/ يوليو عام ١٩٥٢م، ودرست القانون قبل أن تنتقل إلى العيش مع زوجها في بوتسوانا، ثم في مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية، حيث قضت أربع سنوات كتبت فيها تحقيقاً صحفياً مطولاً عن الحياة في السعودية، ونالت عنه إحدى الجوائز المحلية، ثم عادت للعيش في بريطانيا في منتصف عام ١٩٨٠م.

ونشرت هيلاري روايتها الأولى بعنوان: (كل يوم هو عيد الأم) عام ١٩٨٥م، وحصلت على جائزة (وينفرد هولتبي) عام ١٩٨٩م عن روايتها (فلود)، واختارت صحيفة (صنداي إكسبريس) روايتها (مكان أكثر أمناً) كتاباً لعام ١٩٩٣م، وفي السنة التي تلتها فازت روايتها (تجربة في الحب) بجائزة هوثورندن.



لجنة أبو ظبي للأفلام تمنح هيفاء المنصور جائزة الشاشة

اختتمت لجنة أبو ظبي للأفلام أعمال مؤتمر (ذي سيركل) السنوي الثالث، الذي عُقد في المدة من التاسع حتى الحادي عشر من أكتوبر/ تشرين الأول الماضي. ومنحت اللجنة جائزة الشاشة هيفاء المنصور من السعودية. وتتضمن هذه الجائزة المخصّصة لإبراز المواهب الصاعدة في السينما والتلفاز في جميع أنحاء الشرق الأوسط منحةً قدرها مئة ألف دولار أمريكي؛ لتطوير السيناريو، ودعم الفائز ومتابعته.

وجاء اختيار هيفاء عن قصتها (وجدة)، وهي قصة فتاة سعودية طموحة وحالمة بالحرية. وستتابع لجنة أبو ظبي للأفلام مع الفائزة من كثب سير المشروع في مختلف مراحل تطوره، وعملية إنتاجه.

وفازت بالمرتبة الثانية آن ماري جاسر من فلسطين، وجائزتها رحلة إلى مهرجان ميلبورن السينمائي الدولي كجزء من اتفاقية المشاركة المنعقدة بين لجنة أبو ظبي للأفلام، ومؤتمر ساوث ماركت - مهرجان ميلبورن السينمائي الدولي. وتضمن اليوم الختامي لمؤتمر (ذي سيركل) الإطلاق الأول للمؤتمر الاستشاري لتدريب المهارات في الإمارات، وهو برنامج يجمع كلاً من المدارس وشركات الإنتاج الإعلامية ومذيعين من مختلف أنحاء المنطقة؛ ليوفّر فرصاً أمام الطلاب للمشاركة في أعمال سينمائية وتلفازية. وضم مؤتمر (ذي سيركل) أكثر من ٤٠ مشاركاً من المهتمين بمجال صناعة السينما.



الصين ضيف شرف معرض فرانكفورت الدولي

كانت الصين هذا العام ضيف الشرف في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب، الذي أقيم في المدة من الرابع عشر حتى الثامن عشر من شهر أكتوبر/ تشرين الأول. وتمّ تسليط الأضواء على الأدب الصيني، وحرية الكلمة والتعبير المتاحة أمام الأدباء.

واستحوذ الأديب الصيني يان ليانكي مؤلف رواية (حلم جدي) على الأضواء؛ لكونه لم يُسمح له بالقدوم إلى معرض فرانكفورت، كما أن روايته مُنعت في الصين بعد مدة وجيزة من صدورها في عام ٢٠٠٦م؛ لما تحمله من نقدٍ للواقع الصيني.

وتكشف رواية (حلم جدي) الفساد في الكوادر الحزبية الحاكمة في شخصية تاجر الدماء دينك كوي، الذي كان يسحب الدم بالإبر الملوثة؛ مما أدى إلى انتشار الإيدز بين السكان، ولم يُحاسب قط على أعماله، بل إنه حقّق الثراء من خلال المتاجرة بموت الناس، بل كان يقبض ثمن التوابيت على الرغم من وجود تعليمات بتوزيعها مجاناً.

قصيدة

تعليق على ما حدث

محمود مفلح
درعا - سورية

يقولون: لم تُدهشْ ولم تتألَّقِ ... وسرتَ بثوبٍ في العراء ممزَّقِ!
وما كان تفاحُ القصائدِ ناضجاً ... وخمرك «يا محمود» غيرُ مُعتَّقِ
تحاول أن تنأى وتنأى وإنما ... تحاور فجراً بعدُ لم يتخلَّقِ
رميتَ فكان الصيدُ يُفلت هارباً ... وترجع بالصيد الهزيلِ الملفقِ!
وما كان شعرُ الأمس واليوم مقلقاً ... وما نفع شعرٍ باردٍ غيرِ مقلقِ؟
فأيّ القوافي لم تقُلْها مُقلداً ... وأيّ دروبٍ لم تُعبَّدْ وتُطرقِ؟
فلم تجترحْ معنًى فريداً لكي تُرى ... أميراً وتنجو من سقوطٍ محقَّقِ
ولم تستطع خرْقَ النواميس إنما ... بقيتَ بدهليزٍ من الشِّعر ضيِّقِ
لقد كنتَ في كل القصائد واضحاً ... فلم تختبئْ فيها ولم تتشرنقِ
ولم تكترثْ يوماً بشعرٍ مغامرٍ ... إذا حطَّم الأغلالَ لم يترفَّقِ
إذا مدَّ كفاً للنجوم تساقطت ... وإن مسَّ في أوتاره الصخرَ ينطقِ
ويغمرنا بالعطر حينَ نهزُّهُ ... وإن يرسلِ الأمطارَ في الصّيف نغرقِ!
يَلُمّ عن الشَّعر الحرير سنابلاً ... ويسكر في غُنج النساء الموسقِ!
به نكهةٌ للغيم طال انتظارها ... وغيمك لم يلمعْ ولم يتدفَّقِ
خجولاً من الآباء كنتَ ولم تزل ... تقاتل بالسيف القديم المعلَّقِ
بقيتَ على سفح الخيال معانداً ... وتأنف من نسر الخيال المحلِّقِ
ويخدعك الجمهور حين تهزُّهُ ... فتطرب للشعب الغبيِّ المصفِّقِ
وأسوأ ما في الشِّعر تصفيقُ أُمَّةٍ ... غثاءٍ فلم تقرأ ولم تتذوَّقِ!
على ضفَّة الإبداع سرتَ وسطحه ... فلم تركبِ الصعبَ الذي فيه ترتقي!
لقد راح كلُّ الشِّعر عنك مغرّباً ... ورحتَ مع الشِّعر القديم المشرِّقِ
فقلتُ لهم: كفوا! فلستُ مغامراً ... ولستُ بمخدوع الكلام المنمَّقِ
وحسبيَ أنّي كنتُ في الشعر صادقاً ... وأنّي بماء القلب روّيتُ زنبقي
وما نطقتْ يوماً جُزافاً قصيدتي ... ولكنّه جرحي يصيح بها انطقي!
لعلك لم تبصر دخان قصائدي ... وكيف يعاني في المضايق زورقي؟!





تاريخ

الحرب الأهلية الإسبانية

محمد عبدالرحمن القاضي

طنجة - المغرب

إسبانيا قبيل الحرب

شهدت إسبانيا في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين معركة انتخابية تقرّر فيها مصير الملكية، وتمّ إعلان الجمهورية بعد سقوط آخر حكومة يرأسها الملك ألفونسو الثالث عشر، الذي كان يبلغ من العمر تسعاً وعشرين سنة، ونجاح التحالف الجمهوري الاشتراكي.

لقد كانت هذه الجمهورية الثانية في تاريخ إسبانيا ذات طبيعة برجوازية إصلاحية، تتكوّن حكومتها من أحزاب يمينية محافظة وليبرالية، ومن بعض الاشتراكيين المعتدلين. وكان من الطبيعي أن يحتدم الصراع الاجتماعي (الطبقي) الذي عرفته إسبانيا خلال هذه الحقبة التي تميّزت بعدم الاستقرار.



وجاءت انتخابات عام ١٩٣٣م، فأعطت الفوز إلى اليمين والوسط والراديكاليين. ومرّت هذه الجمهورية البرجوازية بتجربتين برلمانيتين فاشلتين؛ لأن اليمين عمل على إفشال التجربة الديمقراطية لما رأى أن الأحداث والتغييرات الجذرية أخذت تتجه اتجاهاً في غير مصلحته، وتجلّى ذلك في التحالف الحكومي بين (لاسيدا Laceda) - الحزب الكاثوليكي - والراديكاليين، ثم موقف اليمين المتطرف المتمثّل في الملكيين والفاشيين.

وفي ظلّ هذه الظروف التي انعدم فيها التجانس الداخلي، وأمام الهزات الاجتماعية الناجمة عن العطالة عن العمل وسط انهيار اقتصادي لا تتحمل الحكومة مسؤوليته؛ أصبحت الديمقراطية عملاً رومانسياً تعصف به نوايا العسكريين المحافظين الانقلابيين، واتّخذ الصراع طابعاً طبقياً إيديولوجياً. وفي ١٦ فبراير عام ١٩٣٦م، أجريت الانتخابات النيابية، وحصلت الجبهة الشعبية، التي كانت تضم كل التقدميين، على ما يقرب من خمسة ملايين صوت، وحصل خصومها على ما يقرب من أربعة، بينما نال الوسط أكثر قليلاً من نصف مليون، وكان جملة الذين أعطوا أصواتهم تسعة ملايين ونصف المليون من مجموع الناخبين المقيّدين، وعددهم أحد عشر مليوناً، وهي نسبة عالية حقاً لم تعرفها إسبانيا في أية انتخابات من قبل. وإذا كان ما حصلت عليه الجبهة في الأصوات أغلبية محدودة، فقد نالت من مقاعد النواب أغلبية ساحقة، فكان لها في البرلمان ٢٧٧ مقعداً، ولليمين ١٣٢ مقعداً، وللوسط ٣٢ مقعداً. وتطلّعت النقابات

العمالية والأحزاب اليسارية عند وصول الجبهة الجمهورية إلى السلطة إلى تحقيق ثورة جماهيرية تلغي الفوارق الطبقية الصارخة بين المواطنين، إلا أن الحكومة حاولت - من دون جدوى - التخفيف من حدة هذه التطلعات، وحفظ التوازن؛ تجنُّباً لإثارة حفيظة القوى المحافظة التي راحت - بنفوذها القويّ داخل الجيش، والعون الفاشي النازي - تتصدى للمدّ الثوري الشعبي. وسيطر الرعب والرغبة في التمرّد على الذين فقدوا الانتخابات، وبدأت الشائعات تغزو كل المحافل والمنتديات. وعلى رغم تحلّي حكومة الجمهوريين بالنزاهة الديمقراطية، وتعاملها مع جميع الاتجاهات في إطار القوانين الدستورية؛ فقد استغلّ المحافظون هذا التسامح، وراحوا يدبّرون للانفراد بالسلطة من خلال انقلاب عسكري يهدم مؤسسات البلاد الدستورية، فشعرت الحكومة بذلك، وكإجراء احتياطي قامت بنقل الجنرال (فرانكو) إلى جزيرة الكناري، والجنرال (غوديد) إلى جزر البليار، والجنرال (مولا) من المغرب إلى بمبلُونة. ومع ذلك، فإن إجراءات النقل تلك جمعاء لم تمنع الجنرالات من الاجتماع، وبحث خطة انقلاب يتولّى رعايتها في مدريد الجنرالات: (باريلا)، و(أورغات)، بقيادة مرحلية للجنرال (سان خورخو)، الذي كان يعيش في المنفى منذ فشل محاولته الانقلابية في أغسطس ١٩٣٢م. وفي الوقت المناسب تضع الحكومة يدها من جديد على خيوط النوايا الانقلابية. فتنقل (أورغات) إلى الكناري، و(باريلا) إلى قادس، إلا أن هذا الأخير يتمكّن - قبل نقله - من تهريب وثائق الانقلاب إلى الجنرال (مُولا) العقل المدبر للانقلاب، حتى سنحت الفرصة للجنرالات الانقلابيين، والتقوا في أثناء المناورات التي أجراها الجيش الإسباني في أوائل يوليو على التراب المغربي، فحدّدوا الثامن عشر من الشهر نفسه موعداً للقيام بالانقلاب.

التمرد العسكري ضد الجمهورية

في ١٨ يوليو عام ١٩٣٦م حدث انقلاب عسكري ضد الجبهة الشعبية للجمهورية الإسبانية، انطلق من شمال المغرب الذي كان تحت الحماية الإسبانية آنذاك؛ فقد أعلن الجنرال موراليس عصيانه في مدينة مليلية المغربية يوم ١٧ يوليو عام ١٩٣٦م. وما كادت الحكومة تعتقله، وتسيطر على المدينة، حتى أعلنت مدينة سبتة تمرُّدها الذي امتدّ إلى جميع الثكنات الإسبانية على أرض المغرب، ومنها - في اليوم التالي - إلى ثكنات شبه الجزيرة الإيبيرية.

وترك الجنرال فرانكو جزر الخالدات، وجاء إلى تطوان في شمال المغرب؛ ليقود الثورة، ويكون قريباً من الأحداث. وبدأ زحفه نحو إسقاط الجمهورية، والاستيلاء على السلطة. واختار لزحفه الطريق نفسه الذي سلكه طارق بن زياد قبل ذلك باثني عشر قرناً؛ فقد سلك طريقه خطوةً خطوةً: هبط الجزيرة الخضراء، ومنها بدأ زحفه نحو إشبيلية، فاستولى عليها، وفيها نصّب قائداً عاماً للثورة، ومنها اتّجه إلى قرطبة، فطليطلة التي اجتاحتها جيوشه يوم ٢٧ سبتمبر عام ١٩٣٦م، وعاثت بأهلها قتلاً وتشريداً بعد أن قصفتها قصفاً خانقاً تجلّى في تدمير قصرها تدميراً كاملاً. وتتويجاً للاستعداد لمهاجمة مدريد توحّدت القيادتان العسكرية والسياسية تحت قيادة الجنرال فرانكو. ولكن المدينة





ترك الجنرال فرانكو جزر الخالدات، وجاء إلى تطوان في شمال المغرب؛ ليقود الثورة، ويكون قريباً من الأحداث. وبدأ زحفه نحو إسقاط الجمهورية، والاستيلاء على السلطة



قاومت في بطولة: فلم يستطع أن يقتحمها، فآثر أن يضرب حولها الحصار. وأن يدع أمر تدميرها لأحدث ما ابتدعت ألمانيا من الطائرات وقنابل الجو، وأفتك وسائل الدمار؛ لأنهم كانوا واثقين من اعتمادهم على مساعدات الفاشية والنازية والكنيسة لهم؛ فقد وضعت إيطاليا وألمانيا كل إمكانياتهما إلى جانب الجيش المتمرّد الذي أصبح يُعرف بـ(الوطنيين)، متوّجتين ذلك باعترافهما رسمياً بحكومتهم الانقلابية.

وبعد فشلهم في اقتحام مدريد تحولوا بثقلهم إلى جبهة الشمال، وبعد معارك طاحنة دخلوا مدينة بلباو - كبرى مدن إسبانيا الصناعية - يوم ١٩ يونيو عام ١٩٣٧م، وبذلك حطّموا واحداً من أقوى الخطوط الدفاعية الجمهورية في شمال البلاد.

وبسقوط مدينة بلباو أعلنت الكنيسة تأييدها للانقلاب. كما قامت السلطات العسكرية الإسبانية في شمال المغرب ومنطقة إيفْني والصحراء المغربية بتجنيد المغاربة، خصوصاً الفلاحين، واستعملت هذه السلطات في حقهم وسائل الإغراء تارةً، وأساليب الإكراه تارةً أخرى؛ حتى بلغ العدد رقماً تتضارب بشأنه التقديرات. ويقول بعض المؤرخين: إن ما يفوق مئة ألف مواطن مغربي ذهبوا كلهم يحاربون تحت راية فرانكو وضباط جيشه من الإسبان وبعض المغاربة. وقد سقط في ساحة هذه الحرب نحو عشرين ألف مغربي حسب إحصاء إسباني غير رسمي.

وبهذا استولى عسكريو القوات البرية والبحرية على المرافق العامة، وفرضوا الأحكام العرفية، في حين حافظت القوات البحرية على ولائها للحكومة، التي راحت أمام هذه المعطيات تجمع صفوف مليشياتها؛ لمواجهة جبهة الانقلاب التي تركّزت معاقلها في الأندلس، وقشتالة القديمة، وليون، وغاليسيا، وجزر الخالدات، والبليار، ومحميتي المغرب: مليلية، وسبتة، بينما ظلّ بقية التراب الإسباني - بما فيه المدن الثلاث الكبرى: مدريد، وبرشلونة، وبلنسية - تحت السيطرة الحكومية.

احتدام المواجهة

دخلت إسبانيا في حرب أهلية من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها. واشتدت فيها المواجهة بين الجبهتين براً وبحراً وجواً (بتدخّل الطيران الألماني النازي)، وتأجّج الصراع

بتداخل العوامل الخارجية، وعرف الجنرال فرانكو كيف يواجه الحركة بمهارة نحو ديكتاتور فاشستي زمن التحالف مع المحور. وقاوم الجيش الجمهوري الشعبي الإسباني وفرق المتطوعين التي هبّت لدعم الشرعية الدستورية - والمساعدات التقنية السوفييتية المشروطة؛ فقد اشترط الشيوعيون الموالون للاتحاد السوفييتي، الذين كان يُعتمد عليهم في وصول العتاد الحربي، وبخاصة الطيران، على رئيس حكومة ائتلاف جمهورية موسعة السيد (لاركو كابالييرو) إيداع رصيد مصرف إسبانيا المركزي من الذهب في موسكو - ببسالة نادرة، وأسندت مهمة الدفاع عن العاصمة إلى مجلس عسكري برأسه الجنرال (روخو) بعد أن انتقلت القيادة إلى مدينة بلنسية، التي أصبحت فيما بعد عاصمةً للجمهورية الإسبانية بعد احتلال قوات الجنرال فرانكو مدريد.

وتحوّلت إسبانيا في أثناء الحرب الأهلية إلى مختبر رهيب جرّبت فيه أكثر التقنيات العسكرية فتكاً، فكانت مأساة (غرنيكا Guernica) - المدينة الأولى في العالم التي دُمّرت بقصف جوي - أكثر من حدث وحشي في تاريخ الحروب، وقد اكتسب أهميته التاريخية في العالم بسبب ردود الفعل التي ردّدت صداها الصحافة العالمية والدعاية الدبلوماسية، إضافةً إلى مختلف القضايا التي رافقتها؛ كالحرب المقدسة، والضغط الكاثوليكي العالمي لمصلحة الفرانكوية، ثم الوجود الإيطالي الفاشي والألماني النازي في الحرب إلى جانب الفرانكويين والكتائبيين ضد الحركات الإقليمية الانفصالية؛ مما أدى إلى قيام الطائرات الألمانية التابعة لفيلق (كوندور Condor) بتدمير بلدة غرنيكا بواسطة قنابل متفجرة وحارقة من دون إنذار مسبق؛ لأن أهلها كانوا بعيدين من الحرب، وفي حالة اطمئنان وهدوء، وعدم استعداد للهلاك الفجائي النازل من السماء في غفلة منهم في

الطائرات أحرقت المدن والقرى وشردت الآلاف







تكشف الوثائق السرية في وزارة خارجية ألمانيا الهتلرية، التي نُشرت بعد ذلك، أن خطة الانقلاب الذي قامت به الفاشية والكنيسة في إسبانيا كانت قد أعدّت باتفاق مع حكومة ألمانيا النازية

أثناء انعقاد سوق المدينة، وذلك يوم ٢٦ إبريل عام ١٩٣٧م؛ إذ أمطرت الطائرات النازية الأطنان من القنابل المحرقة؛ لتتساقط فوق رؤوس الأبرياء والبيوت والكنائس، لتتحول المدينة إلى دمار وخراب، فكانت الحصيلة ١٦٥٤ قتيلاً، و٨٨٩ جريحاً. وكان الهدف من هذه الغارة اختبار تأثير القنابل المتفجرة والمحرقة في البشر في غفلة منهم.

إن هذه المدينة الباسكية كانت تكتسي طابعاً دينياً، خصوصاً أنها كانت من القديم عاصمة بلاد الباسك، ففيها كثير من التسامح، والاعتراف بشخصية هذا الإقليم في الشمال الإسباني، وكان الملوك والقادة قديماً يجتمعون في المدينة تحت ظلّ إحدى الأشجار الوارفة؛ ليحلفوا اليمين بمراعاة الامتيازات الممنوحة للإقليم واحترامها، ومازال جذع هذه الشجرة إلى الآن موجوداً بالقرب من المبنى الذي بُني بعد ذلك لمثل هذه الاجتماعات.

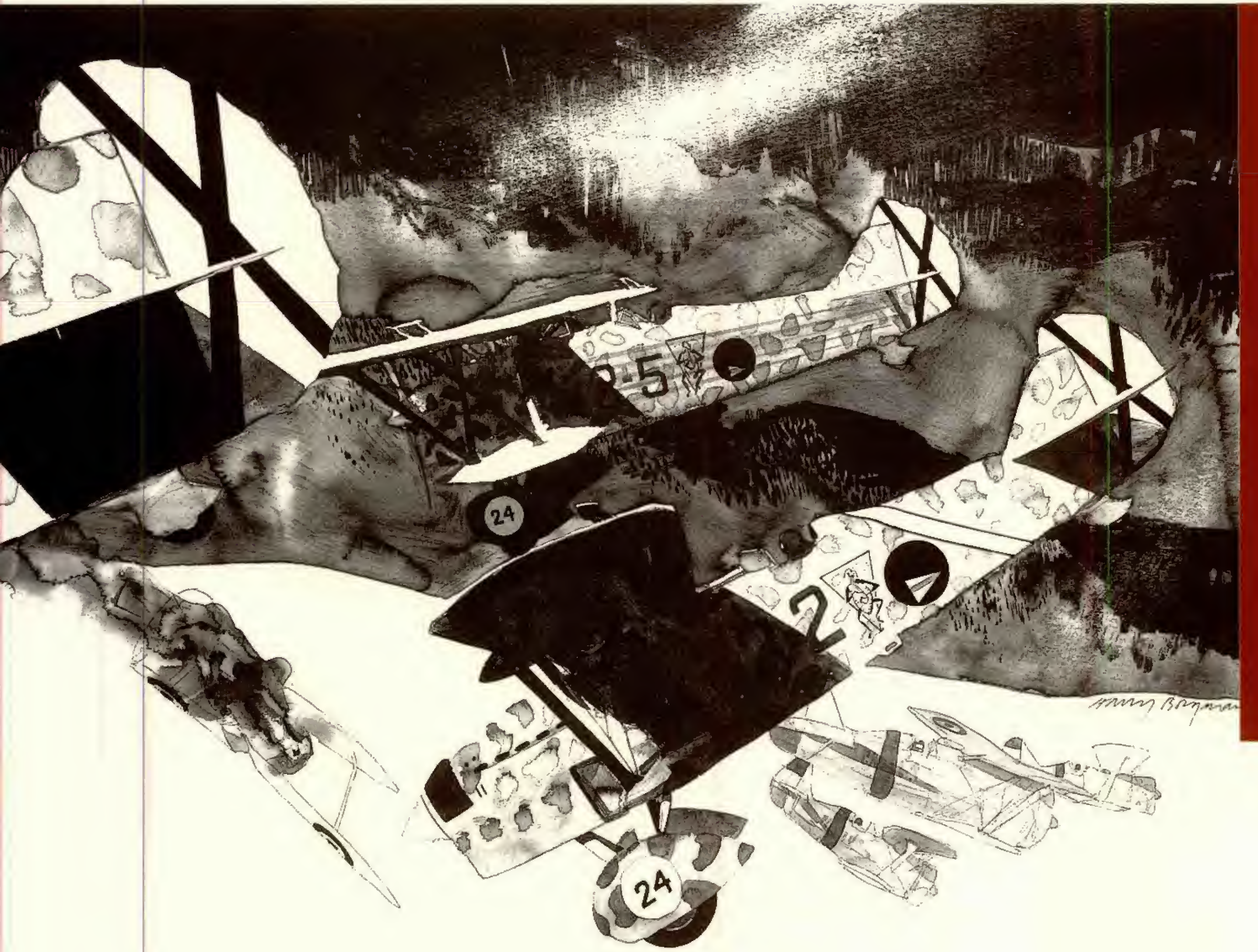
لقد أثار القصف سخط الرأي العام العالمي، وخلّد مأساتها الفنان العالمي (بيكاسو) في لوحة فنية رائعة توجد اليوم في متحف (برادو) بمدريد. ويجمع المؤرخون في الغرب، ومنهم المفكر الإسباني والديمقراطي الجمهوري سلفادور دي مادرياجا، على أن المساعدات الإيطالية والألمانية - مع أهميتها - لم تكن قادرةً على تحقيق النصر للوطنيين المتمردين قدرة بعض الممارسات الثورية السوفييتية على تكبيد الجمهوريين هذه الخسارة، وإلحاق الهزيمة بهم في النهاية، وذلك بسقوط (بورغس) آخر معقل جمهوري في ٩ إبريل عام ١٩٣٩م، وإعلان الجنرال فرانكو سيطرته الكاملة على جميع أنحاء إسبانيا، وموت أكثر من مليون إسباني. وتكشف الوثائق السرية في وزارة خارجية ألمانيا الهتلرية، التي نُشرت بعد ذلك، أن خطة الانقلاب الذي قامت به الفاشية والكنيسة في إسبانيا كانت قد أعدَّت باتفاق مع حكومة ألمانيا النازية، وأن هتلر وموسوليني كانا يعدّان للتدخل العسكري في إسبانيا منذ بضعة أعوام؛ لوقف التطور الديمقراطي لإسبانيا. كما تزعم الوثائق السرية أن الهدف كان (الحيلولة دون سقوط إسبانيا في أيدي الشيوعية). وذلك في الوقت الذي لم تكن فيه العناصر الشيوعية داخل البرلمان تتجاوز بضعة أفراد. وقد تبيّن بعد ذلك أن هذا التدخل لم يكن سوى تمهيد للحرب التي كانت تعدّ الإمبريالية الألمانية لشنّها ضد الحرية والديمقراطية في أوربا خلال أعوام ١٩٣٩-١٩٤٥م، من أجل ضمان أرباحها ومضاعفتها، وتأمين موارد جديدة للمواد الأولية.

وتحت شعار عدم التدخّل، رفضت الحكومة الفرنسية تحت ضغط حليفتها بريطانيا أن تبيع السلاح لحكومة الجمهورية الإسبانية الشرعية، كما أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية أنها تقف على الحياد إزاء التدخل الألماني الإيطالي في إسبانيا. وهكذا وقفت الديمقراطيات الغربية مستسلمةً أمام المذابح الرهيبة التي كانت تقوم بها الفاشية الدولية ضد الشعب الإسباني، وكانت المكسيك الدولة الوحيدة تقريباً التي وقفت بشكل صريح إلى جانب الجمهوريين، وحاولت - على رغم ضعف الإمكانيات وبُعد الشُّقة - مؤازرة الجمهورية الإسبانية الفتية.

المثقفون الأحرار يساندون الجمهورية

ولكن هذا لم يمنع عدداً من مثقفي هذه الدول وغيرها مساندة الجمهورية، والنضال إلى جانب رجالها؛ كأفراد في الفيلق الدولي الذي شارك ببسالة في الدفاع عن مدريد، وعُرف من بينهم أندريه مالو (وزير الثقافة الفرنسي) في عهد ديجول، وإرنست همنغواي (الأديب الأمريكي العالمي)، وجوزيف تيتو (رئيس جمهورية يوغوسلافيا) بعد ذلك، وبالميرو تولياتي (سكرتير الحزب الشيوعي الإيطالي)، وولتر أولبرخت (سكرتير الحزب الشيوعي في ألمانيا الديمقراطية)، والأديب الصحفي الفلسطيني نجاتي صدقي (عضو الحزب الشيوعي الفلسطيني)، الذي جاء إلى إسبانيا في أغسطس عام ١٩٣٦م قادماً إليها من موسكو عن طريق باريس، واتّصل بالجمهوريين في برشلونة، ثم أرسلوه إلى مدريد، وهناك مارس نشاطه النضالي والإعلامي، فأرسل

تحوّلت إسبانيا في أثناء الحرب الأهلية إلى مختبر رهيب جرّبت فيه أكثر التقنيات العسكرية فتكاً، فكانت مأساة غرنيكا الأولى في العالم التي دُمّرت بقصف جوي



مجموعة من المقالات عن الحرب الأهلية الإسبانية إلى مجلة (الرابطة الشرقية)، التي كانت تصدر في لبنان آنذاك، كما قام بدور إعلامي مهم داخل إسبانيا: إذ كان يوجّه النداءات عن طريق الإذاعة الإسبانية التابعة للجمهورية إلى المغاربة المجنّدين في جيش فرانكو، يحثّهم فيها على التخلّي عن مساندة الفاشية وقتل الأبرياء، والانضمام إلى أصحاب الحق الشرعيين، وكان لنداءاته الأثر الفعال في نفسية كثير من هؤلاء الجنود، وانضم فعلاً بعضهم إلى الجمهوريين. وكان عدد العرب الذين حاربوا إلى جانب هؤلاء ٧١٦ متطوعاً (جاؤوا من الجزائر، والمغرب، ومنطقة طنجة (الدولية) آنذاك، وسورية، وجزيرة العرب).

وعلى العموم، فقد كان ميدان المعركة ساحةً اشترك فيها متطوعون من أربعة وخمسين بلداً، يمثّلون طبقات اجتماعية مختلفة، وأحزاباً شيوعية واشتراكية وديمقراطية وعمالية.

وطوال ثلاث سنوات قاوم الجيش الجمهوري الشعبي الإسباني وفرق المتطوعين الدولية جيوش الفاشية الألمانية والإيطالية والفرانكوية ببسالة نادرة. ولكن الوسائل والأساليب الإجرامية التي استعملت ضده، ومئات الطائرات التي اقتحمت مدنه وقراه، لم تترك له فرصة النصر. فكانت المدن تحترق، والقرى والمزروعات

تُباد نتيجة قصف الطائرات والعمليات الحربية، وتشرّد الآلاف من الشعب الإسباني. وذبح المئات وأعدموا، فكان الموت والدمار ينتشران في كل أنحاء البلاد. وقد وصف الشاعر الإسباني الجمهوري ميغل إيرنانديث قبل وفاته في سجن (أليكانتي) عام ١٩٤٢م حالة إسبانيا قائلاً: «إسبانيا لم تعد إسبانيا: إنها مقبرة جماعية، شاسعة، حمراء، ومقصوفة. هكذا أرادها البرابرة».

أما الأديب الشاعر خوان رامون خيمينث، الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٦م، فيصف هذه الحرب في كتابه (حرب في إسبانيا) قائلاً: «بإلقاء نظرة سريعة على يوم واحد نجد أن شعبنا اتّخذ مكانه على كل الجبهات، وغطّى كل المواقع. ضد الخيانة العسكرية التي أعدّت سنةً بعد سنةً؛ كعربون عن خلع الثقة النبيلة. وبأيّ هاجس حماسي؟! ذلك أن الخدعة سلّحت ضمير شعبنا. مدريد كانت خلال الشهر الأول من الحرب - وهذا ما رأيته - تعيش عرساً مأساوياً أحمق. الفرحة، الفرحة الغريبة بإيمان دموي عمّت كل الجبهات، فرصة الاقتناع. فرحة الإرادة. فرحة القدر الإيجابي أو السلبي. وإن هذا الحماس الهادر، وهذا الالتحام الدموي بالحقيقة بشّر من الوهلة الأولى بالانتصار العادل للشعب، لو لم تتكالب على الثورة العسكرية قوات أجنبية طاغية. وإسبانيا - الجمهورية الإسبانية الديمقراطية والشرعية - ليتم لها الآن تنظيم هياكلها، وتوضيح مثالها القارّ أمام العالم.

كان هدفي - بعد خروجي من إسبانيا لأداء واجبات طائرة عامة وشخصية - إظهار حقيقة الحرب للدول الأجنبية التي كانت صحافتها - وأعتقد أنها كانت تعتمد على أخبار مغلوطة - تقدم الوقائع والأحداث بصورة مخالفة تماماً للواقع. المظالم المجزّأة. وكل الحماقات من كل الأنواع تُقترف - بلا شك - في إسبانيا من طرف الأعداء، ولكن بطريقة متباينة جداً. العسكريون المتدون ينظمون ويقودون - عسكرياً - للانقلاب والثأر، ويستعينون بقوات أجنبية مشهورة بلا أخلاقياتها وقساوتها؛ لكي يقوموا بأنشطتهم الإجرامية الواسعة بعد توزيع الغنائم.

في المقابل، حكومة الجمهورية وممثّلو الجبهة الشعبية يدينون يومياً عبر الصحف والإذاعة والبيانات كل عمل وحشي، ومليشياتهم. وطائراتهم، وحرّاسهم المدنيين، وقوات التدخّل، والجنود، وشبابهم من الحرّاس، وقياداتهم يظهرون باستمرار التعقّل والشرف والعفة.

حقيقةً، إن إسبانيا لم تنزف دماءها فحسب، وإنما نزفت مفكّريها ومثقفيها وزهرة شبابها الذين هاجر معظمهم إلى أوربا وأمريكا الجنوبية والشمالية، وحوصر من بقي منهم داخل إسبانيا.

وكانت إسبانيا في النهاية - الأرض واللسان - هي الخاسرة الكبرى عالمياً ومحلياً؛ فعلى الصعيد العالمي عاداها منتصرو الحرب العالمية الثانية بوصف نظامها من إرث النازية المهزومة الفاشية.



المراجع

(١) انظر: مجلة الثقافة العربية الليبية، عدد ٤، عام ١٩٨٥م، (الحرب الأهلية الإسبانية: الدرس والعبرة)، للدكتور محمد عبدالله الجعيدي، ص١٤-١٨.

(٢) مجلة الطليعة المصرية، مايو عام ١٩٧٦م، (إسبانيا - فرانكو ١٩٣٦-١٩٧٥م)، للكاتب وديع أمين، ص١١٣-١١٥.

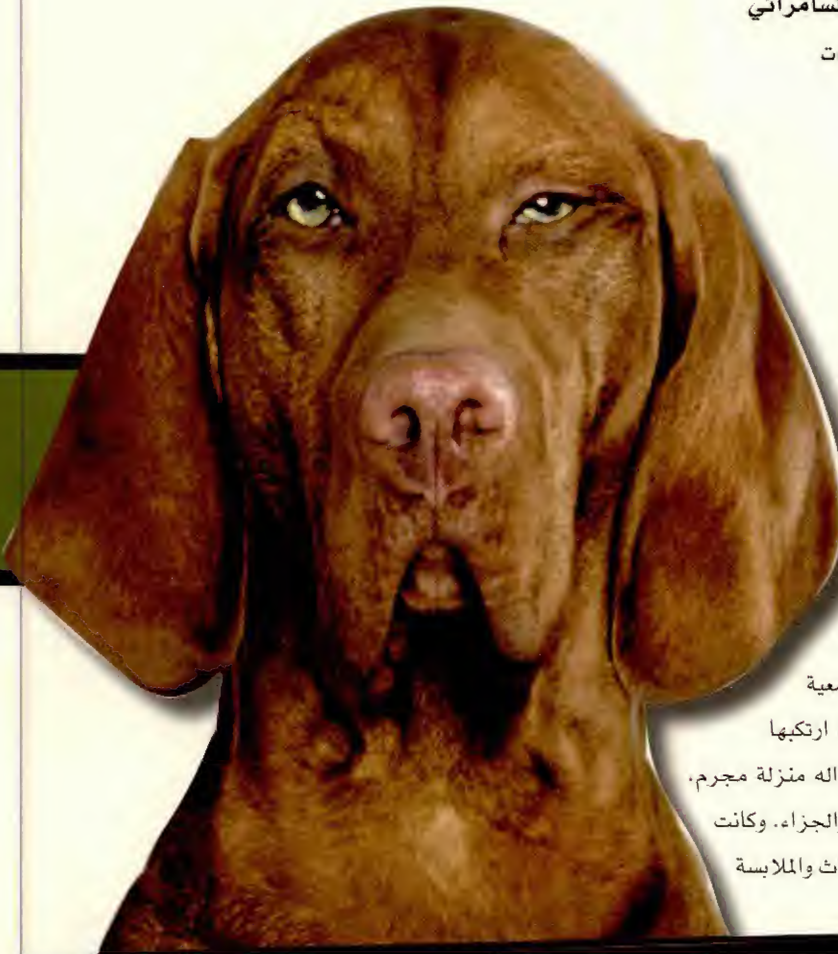
(٣) مجلة الثقافة العالمية الكويتية، عدد ٣٦، عام ١٩٨٧م، (رسالة مدريد للدكتور محمود صبح عن إحياء ذكرى انقضاء خمسين سنة على المؤتمر الثاني للمعادين للفاشية)، ص٢٠١-٢٠٥.

العقوبات

غريب القوانين وعجيبها في الحضارات الإنسانية

محمد رجب حسين السامرائي

أبو ظبي - الإمارات



ظهرت مسؤولية الكائن غير الإنساني - الحيوان والنبات والجماد - عند الأمم السابقة في صور كثيرة؛ فأحياناً تقع المسؤولية لعمل أحدثه، أو كان من أسباب حدوثه، وأحياناً كانت تقع عليه لعمل لابسه في صورة ما من دون أن يكون له دخل في أحداثه، أو كان يُؤخذ في نطاق المسؤولية الجمعية مع أفراد الأسرة التي تملكه لجريرة ارتكبها بعض أفرادها، أو كان يتّفق على إنزاله منزلة مجرم، فتتجه نحوه جميع إجراءات المسؤولية والجزاء. وكانت المسؤولية في الحالتين الأوليين - الإحداث والملابسة - تتجه نحوه مع مالكه، أو أن تتجه إليه مع الشخص الذي اشترك معه في إحداث الجُرْم أو ملابسته، أو تتجه إليه مع هؤلاء جميعاً.

العقوبات في الحضارات القديمة

لقد اختلفت شرائع الأمم الماضية ونظمها. وهي التي أقرّت مسؤولية الحيوان والنبات والجماد في تحديد الأنواع التي تعدّ أهلاً كذلك؛ فبعض الأمم يطبّق هذه المسؤولية على جميع الكائنات غير الإنسانية أياً كان نوعها، وبعضها لا يأخذ بها إلا حيال نوع أو أنواع خاصة منها. غير أن جميع هذه الشرائع لم تقرّ هذه المسؤولية إلا في بعض جرائم خطيرة في نظر العقل الجمعي، بينما تسير فيما عدا ذلك على المبدأ الذي تسير عليه الشرائع المعاصرة. وسنتحدث فيما يأتي عن ستة غرائب من نظم القضاء في الحضارات القديمة: اليهود، واليونان، والرومان، والجرمان، والفرس، وبابل[1].

عقوبة نطح الثور الإنسان

أقرّت أسفار اليهود مسؤولية الحيوان وعقابه في حالتين: تتعلّق إحداهما بتسبّب الحيوان في قتل إنسان، وتتعلق الأخرى باتصال الإنسان ببهيمة. ونصّ سفر الخروج عن الحالة الأول بقوله: «إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة، وأفضى ذلك إلى موت النطيح، وجب رجم الثور، وحرّم أكل لحمه، ولا تبعة على مالكه إذا لم يكن الثور معتاداً النطح. فإن كان ذلك من عادته، وأنذر الناس صاحبه، فلم يعبأ بإنذارهم، وأهمل رقابته حتى تسبّب في هلاك رجل أو امرأة، كان جزاء الثور الرجم، وجزاء صاحبه الإعدام». أما الحالة الثانية، فقد نصّ عليها سفر اللاويين؛ إذ يقول: «إن قرب رجل بهيمة حُكم على كليهما بالموت، وإن قربت المرأة حيواناً وجب قتل المرأة والحيوان»[2].

أرسطو: تحطيم الجماد

حرص اليونانيون القدماء على عقاب الحيوانات والجمادات المتسببة في هلاك إنسان ما، حتى أنشؤوا في القرن السابع قبل الميلاد محكمة مستقلة في أثينا، كان يُطلق عليها اسم «البريتانيون»؛ اسم المكان الذي كانت تُعقد جلساتها فيه. وذكر ديموستين (٣٨٤-٣٢٢ ق. م) عبارة تدلّ على وجود هذه المحكمة في عصره؛ إذ قال: «إذا سقطت صخرة، أو قطعة حديد، أو خشبة على شخص فقتلته، وجب أن تقام عليها الدعوى أمام محكمة البريتانيون»[3].

كذلك أشار أرسطو في هذا الصدد إلى أنه كان يُحاكم





اختلاف كبير بين الأمم في العقوبات على مر العصور

أقرّت أسفار اليهود مسؤولية الحيوان وعقابه في حالتين: تتعلّق إحداهما بتسبّب الحيوان في قتل إنسان، وتتعلق الأخرى باتصال الإنسان ببهيمة

أمام هذه المحكمة الحيوانات المتسببة في موت الآدميين. ويظهر أنه كان يحكم على الجماد بالتحطيم، وعلى الحيوان بالإعدام، وكان يُقذف بكليهما عقب ذلك خارج حدود البلاد. وقد أقرّ أفلاطون هذا المبدأ في كتابه «القوانين» بقوله: «إذا قتل حيوان إنساناً كان لأسرة القتيل الحق في إقامة دعوى عليه - على الحيوان - أمام القضاء، ويختار أولياء الدم القضاة من المزارعين، ولهم أن يختاروا منهم أيّ عدد يشاؤون. وفي حالة ثبوت الجريمة على الحيوان يجب قتله قصاصاً، وإلقاء جثته خارج حدود البلاد. ويُستثنى من ذلك القتل الناشئ عن مبارزة الإنسان والحيوان في مسرح الألعاب العامة، فلا يترتب عليه أي إجراء قضائي».

ومن غرائب القضاء اليوناني أيضاً أن مسؤولية الحيوان عندهم لم تكن مقصورة على الحالات التي يؤدي عمله إلى قتل إنسان، بل كانت تقع عليه المسؤولية كذلك في جرائم أخرى. فقد ذكر بلوطارخوس قانوناً من قوانين صولون - المُشرِّع الأثيني الشهير (٦٤٠-٥٥٨ ق. م) - يتضمن مسؤولية الكلب إذا عضّ إنساناً. ويُقضى على صاحب الكلب في هذه الحالة بتسليم كلبه إلى المجني عليه مكموماً ومشدوداً في الوثاق[٤].

الرومان وعقوبة الحد

أقرّت الشرائع الرومانية القديمة مسؤولية الحيوان في أحوال كثيرة: فالتشريع المنسوب إلى نوما بُومبيليوس - ثاني ملوك الرومان قبل عصورهم التاريخية (٧١٤-٦٧١ ق. م) - يتضمن مادة تقضي بإنزال عقوبة الإعدام على الثور وصاحبه اللذين يتسبّبان في أثناء عملية الحرث في نقل الحد بين الحقل المحروث والحقل المجاور له. ولعل السبب في تشريع العقوبة في هذه الجريمة هو أن قدماء الرومان كانوا ينظرون إلى حدود الحقول نظرتهم إلى أمور مقدسة، حتى لقد زعمت أساطيرهم أن هناك إلهاً خاصاً يقوم بحراستها وحمايتها من المعتدين، فنقلها من أمكنتها لم يكن في نظرهم اعتداءً على الملكية فحسب، بل كان كذلك انتهاكاً لحرمة الدين، وتحدياً للآلهة. لذلك كان الثور وصاحبه يقدمان قرباناً إلى الإله الذي انتهكت حرمته[٥].

أقرّت الشرائع الرومانية القديمة إنزال عقوبة الإعدام على الثور وصاحبه اللذين يتسبّبان في أثناء عملية الحرث في نقل الحد بين الحقل المحروث والحقل المجاور له





الجرمان والاحتفاظ بالرحى

أقرّ الجرمان مسؤولية الحيوان في كثير من الجرائم. وأقرّت حياله مبدأ (التخلّي) على وجه يتّفق أحياناً كل الاتفاق مع الطريقة التي سارت عليها شرائع اليونان والرومان. ويختلف عنها أحياناً في أمور ثانوية لا تمسّ جوهر الموضوع في شيء، فمن ذلك مثلاً أنه كان يجب على المالك في بعض الأحيان أن يدفع جزءاً من الغرامات المقرّرة زيادةً على البهيمة التي يسلمها إلى المجني عليه.

كما اشتملت شرائع الجرمان على بعض مواد تنطوي على التسليم بأهلية الجماد نفسه لاحتمال المسؤولية وما يترتب عليها من نتائج. فمن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: ما تقرّره في حالة هلاك شخص، أو تلف بعض أعضائه، على إثر اصطدام برحى مملوكة لشخص آخر؛ فإنها توجب في هذه الحالة على مالك الرحى أن يسلمها إلى المجني عليه أو أسرته، على طريقة التخلّي عن المجرم بتسليمه إلى الموتور، أو يدفع الغرامات المقررة إن أراد الاحتفاظ برحاه[٦].

غرائب عقوبات الفرس

كما نجد في الشرائع الفارسية القديمة عقوبات غريبة تفرضها مجموعة أسفارهم المنسوبة بحسب الديانة الزرادشتية إلى الفرس القدامى. فإذا كان الكلب مثلاً مصاباً بالكلب (داء الكلب)، وقام بعضّ خروف وقتله، أو جرح إنساناً ما، فيجب قطع أذنه اليمنى، وإذا تكرّر ذلك قطعت أذنه اليسرى، وفي المرة الثالثة تقطع رجله اليمنى، وتقطع في الرابعة رجله اليسرى، ثم يستأصل ذنبه في المرة الخامسة. ويعاقب صاحبه كذلك إن كان قد أهمل في اتخاذ ما ينبغي اتخاذه حيال كلبه من احتياط ورقابة[٧].

عجائب العقوبات في مسلة حمورابي

تعدّ مسلة حمورابي - الملك البابلي في حضارة العراق القديم - من المسلات التي ضمّت قوانين خاصة بمملكته الواسعة الأرجاء. ويبلغ ارتفاع المسلة سبعة أقدام وست عقد، ويوجد في أعلاها نحت بارز يمثّل إله الشمس، وهو إله العدالة أيضاً، يتلقى ولاء الملك حمورابي، وتحته نقش نصّ الشريعة التي ضمّت موادّ، منها: «إدارة القضاء، والاعتداء على الملكية، وشؤون ملكية الأرض، والمهن والمعاملات التجارية، والعائلة مؤسّسة اجتماعية، وعقوبات الاعتداء، وأجور الحيوانات المستأجرة، وثيران الجرّ، وغيرها»[٨].

وقد اشتملت المسلة على بعض القوانين الغريبة بعقوباتها على مرتكبيها، منها عقوبة شهادة الزور: «إذا تقدّم رجل في دعوى قضائية كاذبة، ولم يثبت صحة ما قال، فإن كانت تلك الدعوى عقوبتها الموت فإن الرجل يُعدم. وإذا أدلى بشهادة كاذبة بشأن حبوب أو فضة، فعليه أن يتحمل العقوبة التي تفرض في تلك القضية». أما في عقوبة النهب، فنصّت شريعة حمورابي على أنه «إذا اندلعت نار في بيت رجل، وجاء رجل لإطفاء النار، ووقعت عينه على شيء من ممتلكات صاحب البيت، وأخذ ذلك الشيء العائد لصاحب البيت؛ فإن الرجل يُلقى في النار»[٩].

كما نصّت عقوبة التبنّي وتعليم المهنة أنه «إذا أخذ حرفي ولداً ليربّيه (يتبنّاه)، وعلّمه مهارته اليدوية (حرفته)، فلا يطالب أحد باسترداد الولد. وإذا لم يعلّمه حرفته اليدوية فإن لذلك الولد أن يعود إلى بيت أبيه». و«إذا بنى بنّاء داراً لرجل، ولم يكن بناؤه متيناً فانهار، وأدى إلى موت صاحب الدار، فإن ذلك البنّاء يُعدم. وإذا أدى إلى موت ابن صاحب الدار فإنهم يقتلون ابن ذلك البنّاء»[١٠].

المراجع

١- علي عبدالواحد وافي، غرائب النظم والتقاليد والعادات، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، مصر، ١٩٨٤م، ص٩٨.
٢- المرجع السابق، ص٩٨، ٩٩.
٣- المرجع السابق، ص١٠٢.
٤- المرجع السابق، ص١٠٢، ١٠٣.
٥- المرجع السابق، ص١٠٥.
٦- المرجع السابق، ص١٠٧.
٧- المرجع السابق، ص١٠٧، ١٠٨.
٨- هاري و. ف. ساكز، الحياة اليومية في العراق القديم: بلاد بابل وآشور، ترجمة: كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد، العراق، ٢٠٠٠م، ص١٥٧، ١٥٨.
٩- المرجع السابق، ص١٦٠.
١٠- المرجع السابق، ص١٦٤، ١٦٥.

أنا أنسى

سـعـد الـبـواردي
الرياض - السعودية

أنا أنسى.. كل شيء في حياتي
أضحياتي.. أمسياتي.. ذكرياتي..
كل شيء.. أنا أنسى..

أنا لي بال!! ولكن...
ليس في الذكر بال
واقعي محض خيال
صورتي بعض ظلال
تطعم النسيان
تقتات الهزال
أنا لي بال!! ولكن
ليس في الذكر بال

أنا أنسى.. كل شيء في حياتي..
دمعتي تجري لتُنسى
ضحكتي.. كل انفعالاتي..
بناتي.. وأساتي
كل شيء في حياتي
ما مضى يُطوى ويُنسى
أنا نشوان!!
لأني بغبائي أتأسّى!!
أنا محظوظ لأني العمر أنسى!!
كل شيء في حياتي..
قارب لا يعرف مرسى..!



قصيدة

الليل والغريب

كمال حسين نشأت

القاهرة - مصر

إلى أين تمضي
وحيداً كصبّارة القبْرِ؟
وجهكَ بئرُ الجفافِ
وصمتُ الرَبَابةْ
وأحزانُكَ المُعْشباتُ اسْتَطَلْنَ
وأصْبَحْنَ غابةْ
إلى أينَ تمضي
وليلُ المدينة يمتدُّ حولكَ
والمطرُ المُسْتَهِلُّ يُباكي
شوارعها الخالياتْ
وأنت وهذي الوريقة
فوق الرصيفِ تزوبعُها الريحُ
لا منْ صديقٍ
ولا من ضياءٍ سوى ذَبْذَبَاتِ المصابيحِ
والشُّقَقُ الدافئاتُ
تسلَّلَ منْهُنّ عَبْرَ النوافذِ
خَيْطٌ منَ الضوءِ يُنْبئُ
عن آخرين يعيشونَ
جوّ الحنَانِ وطعْمَ المودةْ
كوباً منَ الشاي؟ لَفْظَة ودٌّ
وجلْسَة عائلة ما تُريدُ؟
وكيف وأنت الغريبُ الجديدُ
على هذه البلدة المُسْتحمّة
في مطرِ الليل أرملةً
كفَّنتها الدموعُ
ستمشي ويرسبُ في قَلْبكَ
المطرُ المُتساقطُ في الطُّرُقاتِ
وحيداً كصبّارةِ القبْرِ
وجهكَ بئرُ الجفافِ وصمتُ
الربَابةْ
وأحزانُكَ المُعْشباتُ استَطَلْنَ
وأصْبَحْنَ غابةْ....





النظام التربوي التركي

نظـــــرة فـاحصـة من الخـارج

أنور طاهر رضا

أزمير - تركيا

لكل بلد نظامه التربوي الخاص به. وتتأتى هذه الخصوصية من ثقافة البلد، ونظامه السياسي، وتراكم الخبرات، والكوادر العلمية، والإمكانات المادية، وغيرها من العوامل. ومن تزاوج هذه العوامل المختلفة تظهر الفردية الفريدة في أيّ نظام تربوي معيّن. ولا شك أن البلد المعيّن لا يعيش منعزلاً عن بلدان العالم الأخرى؛ فهو جزء من هذا المجتمع الدولي، يأخذ ويعطي قليلاً أو كثيراً؛ فهو في الوقت نفسه يؤثر ويتأثر بدرجات تزيد أو تنقص حسب الظروف الزمانية والمكانية المختلفة.

ونحن ندرس الأنظمة التربوية المختلفة للاستفادة منها من عدة جوانب مختلفة: من جانب دعم ما لدينا من جوانب قوية تساير الجوانب القوية في تلك البلدان، ومن جانب الاستفادة من الجوانب القوية في نظام بلد معيّن لأخذ ما ليس موجوداً لدينا، وما يفيدنا بشكل أو بآخر، ومن جانب تحاشي الأخطاء والخبرات غير الناجحة في هذه الأنظمة.

التربية والتعليم هما السند الحقيقي للتنمية والتقدم، وهما المعوَّل عليهما في تنشئة الأطفال والشباب، وإعداد الطاقات المختلفة الذين يتولّون المهام المختلفة في أيّ بلد من بلدان العالم. وإذا صلح التربية والتعليم صلحت معهما الكوادر التي تتولى مقاليد القيادة والعمل في مستقبل البلد. ومن التحليل الدقيق للتربية والتعليم في دول العالم يجد المرء أن الذين سبقوا غيرهم في نشرهما إلى كل مستويات المجتمع بشكل سليم هم في صفوة المجتمعات من حيث التقدم. وهكذا تفعل المجتمعات التي تحسب حساب المستقبل. أما التي تنظر إلى يومها، فتحسب حسابات أخرى لا تغني إلا القليل. المشكلة في أمر التربية والتعليم أنهما لا يعطيان ثمارهما في يوم أو آخر، أو في سنة أو ما بعدها، بل يحتاجان على الأقل إلى جيل من الزمان يقدَّر بأكثر من عقدين من الزمان. وأصوب ما يفعله الحكام هو استثمار طويل الأمد في ميدان التربية والتعليم، وصبر جميل، وتتبُّع دائم، وقطف لثمار غنية في نهاية المطاف.

الذين يعيشون في ظل نظام تربوي معيّن قد لا يرون كثيراً مما يراه الذين تربّوا في خارج هذا النظام. ولقد شاءت الظروف أن أُربَّى في ظل نظام تربوي آخر غير النظام التربوي التركي، ثم استقر بنا المقام في هذا البلد منذ أكثر من عقدين من الزمان. وكنت ألجأ إلى المقارنات بين الأنظمة التربوية المختلفة في المحاضرات التي ألقيها على الطلبة في الجامعة. وفي المدة الأخيرة طُلب مني الاشتراك في مؤتمر، ثم تلته حلقة نقاش. لقد شكّلت المواد التي أعددتها لهذا الهدف، والمناقشات التي دارت في هذا المجال، الهيكل الأساسي لهذا المقال. نتناول بعض جوانب النظام التربوي التركي بشكل مستقلّ، مع التحليل، وإبداء الرأي في هذه الجوانب.

التعليم الابتدائي

التعليم الابتدائي في تركيا بخلاف بعض الدول العربية لمدة

خمس سنوات، يليه التعليم المتوسط لمدة ثلاث سنوات أخرى. التعليم في تركيا مختلط في جميع المراحل، باستثناء مدارس خاصة قليلة جداً في المرحلة الثانوية للبنات، وأخرى للبنين. ومع ذلك، فالهيئة التعليمية مختلطة في هذه المدارس أيضاً كغيرها من المدارس. ولمسوّغات، أهمها سياسية المنشأ، فقد ارتئي في نهاية العقد الماضي دمج هاتين المرحلتين لتشكّلا مرحلة واحدة، هي مرحلة التعليم الأولي الإلزامي.

يتولى التعليم في مرحلة التعليم الابتدائي معلمون ومعلمات يتخرجون اليوم في كليات التربية بعد تعليم لمدة أربع سنوات جامعية، مع ممارسة تطبيقية تؤهلهم لممارسة هذه المهنة. ويطلق على من يتولى هذه المهنة في تركيا اسم (معلم أو معلمة الصف). ومعلم الصف يتولى مهمة التعليم في الصف الأول الابتدائي على سبيل المثال، ثم يتدرج مع تلاميذه إلى الصف الثاني، فالثالث، والرابع، والخامس، إلى أن يكمل هؤلاء التلاميذ هذه المرحلة. يرجع هذا المعلم أو المعلمة ليتولى مهمة تعليم تلاميذ جدد ابتداءً من الصف الأول؛ ليتدرج معهم إلى الصف الخامس مرةً أخرى. وما لم ينقل هذا الشخص إلى مدرسة أخرى لسبب أو آخر، وما لم تحصل تطورات أساسية في هيكل هذه المدرسة، تتكرر العملية مرات ومرات خلال حياة هذا المعلم أو تلك المعلمة المهنية.

مسوغات هذا النوع من التطبيق أن المدرسة الابتدائية امتداد للبيت، وأن المعلمة ما هي إلا بمنزلة الأم أو الأب، وأن تغيير المعلم أو المعلمة إنما يضرّ بالطفل ضرراً بالغاً. وقد بدأ هذا التطبيق ضمن منجزات الجمهورية التركية التي أسّسها مصطفى كمال أتاتورك على إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى، واستمر حتى يومنا هذا.

وأضحى هذا التطبيق أمراً لا يناقشه أحد، ولا يجري في فعاليته أيّ باحث تركي ما يثبت جدواه، أو يدحض ذلك.

ومع إهمال وجود مثل هذا النظام في دول أخرى، أو مخالفته في دول غيرها، نجد أن واقع الحال إذا دققنا فيه تدقيقاً ثاقباً، وفحصناه فحصاً ثرياً، لوجدنا أنه يتضمن عدة محاذير، هي:

- معلم الصف لا يمكن أن يكون كفؤاً في كل المجالات: تولّي معلم الصف مهمة تعليم كل الدروس في صف واحد يتضمن محاذير جدية؛ لأن هذه الدروس مختلفة، تتضمن بجانب اللغة التركية، والرياضيات، والمعلومات الحياتية، والعلوم الاجتماعية، والتربية البدنية، والنشيد والموسيقا، والتربية الفنية، والصناعات اليدوية، والتربية الدينية والأخلاقية. وعلى الرغم من أن هذه الدروس تتضمن معلومات أولية على قدر كبير من البساطة والسهولة إلا أنها

التعليم مختلط في تركيا: والابتدائية خمس سنوات





التربية والتعليم هما السند الحقيقي للتنمية والتقدم، وهما المعوّل عليهما في تنشئة الأطفال والشباب

ميادين خاصة تحتاج إلى معلومات أعمق ومهارات وقابليات خاصة لدى المعلم أو المعلمة. وقبول وجود مثل هذه المعلومات والمهارات والقابليات لدى كل معلم ومعلمة على درجة عالية ليس بأمر صحيح من الزاوية العلمية. ونتيجة ذلك، وانطلاقاً من فكرة (أن المعلم يدرّس ما يجيده)، يكون بعض هذه الدروس على الأقل حملاً ثقيلاً على المعلم أو المعلمة، فيحاول التخلص من هذه الدروس بطريقة أو بأخرى بتحويلها إلى دروس أخرى، أو ترك التلاميذ وشأنهم يفعلون ما يشاؤون. وتبقى قابليات التلاميذ في هذه الدروس خافية، ولا تظهر إلى الوجود، أو لا تنمو أو تتطور، بل تضعف بمرور الأيام، أو تذهب هدراً، أو لا تستغلّ كما يجب أن تستغل خلال السنوات الخمس التي يتولى فيها هذا المعلم أو المعلمة مهمة تعليم هؤلاء التلاميذ.

يمكن أن تنحلّ هذه المشكلة بإحدى طريقتين، أو بكلتيهما في آن واحد: الطريقة الأولى وجدتُها مطبقةً في الولايات المتحدة الأمريكية؛ فالتلاميذ من ذوي الكفاءات العالية في أيّ درس من الدروس يدرسون هذا الدرس مع أقرانهم في الصف، ولكنهم يلقون دروساً أخرى أعلى مستوى في صفوف أخرى، فيطوّرون كفاءاتهم من دون أيّ تأخير.

الطريقة الثانية لحل المشكلة تتحقّق بالنظر إلى معلم الصف من زاوية أخرى؛ إذ يتولّى معلم الصف تدريس اللغة والرياضيات فقط في صفه المنوط به. ويوازي هذا التطبيق درجات الرياضيات واللغة التي حصل عليها الطالب المتقدم إلى كلية التربية، التي أخذت في الحسبان عند القبول في هذه الكلية. أما الدروس الأخرى في هذا الصف، فيدرِّسها معلمون آخرون. واختيار هذه الدروس يترك لطلبات المعلمين حسب ما يرون أنهم مؤهلون لتدريسه نتيجة الاختصاص أو الخبرة في المجال المعيّن.

– الصعود العمودي يزيد الطين بلةً: يعني الصعود العمودي أن معلم الصف يدرس تلاميذ الصف الأول الابتدائي مدة سنة واحدة، فينجحون إلى الصف الثاني، فيكلّف المعلم تعليم التلاميذ أنفسهم في هذا الصف، حتى إذا نجحوا إلى الصف الثالث ذهب معهم إلى الصف الثالث في هذه المرة. وهكذا يتقدم معهم حتى إكمالهم المرحلة الابتدائية، فيرجع إلى الصف الأول مع تلاميذ جدد، ويستمر معهم إلى أن يكملوا الصف الخامس، وهكذا.

تدريس معلم الصف التلاميذ أنفسهم مدة خمس سنوات فيه محاذير من عدة وجوه، ويضيف إلى المشكلة السابقة مشكلات أخرى جديدة. فقبل كل شيء لا يمكن القبول أو التفكير في أن أيّ معلم يمكن أن يكون كفؤاً ومتكاملاً من جميع الجوانب؛ لأن لكل معلم جوانب قوية وضعيفة. ومن الطبيعي أن يستفيد التلاميذ من جوانبه القوية، ولكن قدرات التلاميذ المختلفة لا يمكن أن تطوَّر بجوانب المعلم الضعيفة، ويكون تلافي ذلك بعد خمس سنوات من الزمان أمراً صعباً جداً؛ بسبب التأخر في ذلك. ومن وجهة النظر التربوية، فإن تلافي النواقص بعد مرور سنة واحدة يعدّ أمراً متأخراً، فما بالك بخمس سنوات طوال من عمر هؤلاء التلاميذ؟!.

وكما أن هذا التطبيق فيه محاذير من وجهة نظر التلاميذ، ففيه محاذير أخرى من وجهة نظر المعلمين. المحذور الأهم هو عدم تشكيل التخصّص في تدريس صف معيّن: فالمعلم الذي يتولى التدريس في صف مختلف في كل سنة يتكلف بإعداد برامج مختلفة، واستعدادات جديدة في كل سنة، ووسائل تعليمية مختلفة. كما أن استحالة تلافي نواقص المعلم بعد مرور خمس سنوات من الزمان تعني ضياعاً لهذه القابليات على مستوى الأفراد والمجتمع معاً.

إن تعليم المعلّم التلاميذ أنفسهم مدة خمس سنوات يعرقل الاستفادة من قابليات المعلمين الآخرين. كما أن الاستفادة من خمسة معلمين على الأقل خلال سنوات المدرسة الابتدائية، بمتوسط معلم واحد في كل سنة، ستخلق فرصاً أفضل لتطوير قابلياتهم المختلفة.

حلّ مشكلة الصعود العمودي هو التطبيق الأفقي، وهذا يعني أن

دخول عدد لا بأس به من خريجي ثانويات الأئمة والخطابة إلى الكليات الأخرى، ثم تسرّبهم إلى مرافق الدولة المختلفة، هما ما أزعجا أنصار العلمانية كثيراً



يتدرج المعلم مع تلاميذه حتى نهاية المرحلة الابتدائية

المعلم عندما يكلّف تدريس صف من الصفوف، وليكن الصف الأول أو الثاني أو الثالث أو غيرها، سيدرّس الصف نفسه في السنوات اللاحقة ما لم تتغيّر الظروف في هذه المدرسة. وهكذا يتولى تدريس هؤلاء التلاميذ معلم آخر، ويستفيد التلاميذ من جوانبه القوية هو الآخر. وهذا يعني أيضاً الاستفادة من قابليات معلم في كل سنة. وهكذا يستفيد التلاميذ من قابليات خمسة معلمين على الأقل بدلاً من الاستفادة من قابليات معلم واحد. وإذا أُخذ في الحسبان المعلمون الآخرون من غير معلّم اللغة والرياضيات فسترتفع أعداد المعلمين الذين يستفيد منهم التلاميذ.

ومن جانب آخر، فإن هذا التطبيق مفيد أيضاً من جانب المعلمين؛ لأن تكرار تدريس الصف نفسه سنوات طويلة يعني تراكماً في الخبرة، ونوعاً من التخصّص، فسيكون معلم الصف الأول أو الثاني مع مرور الزمن صاحب باع طويل، وقد تراكمت لديه من مواد التدريس خبرة كثيرة وغنية.

أضيف إلى ذلك أنني حضرت صفوفاً لتلافي نواقص التلاميذ في هولندا؛ فالذين لم يستطيعوا أن يسايروا زملاءهم في الصف يؤخذون يومياً إلى صف آخر بمعلم آخر يتولى هذه المهمة. وإذا كانت الإمكانيات البشرية محدودة يُلجأ إلى تطبيق من نوع آخر؛ إذ يختار المعلم من التلاميذ الجيدين في الصف من يساعدونه في مهمته. وتشير البحوث والدراسات إلى أن التلاميذ يستفيدون بشكل أحسن بعضهم من بعض. وحسب دراسة أجرتها مجلة (The Time) الأمريكية في التسعينيات من القرن الماضي، فإن أحسن المدارس التي تعلّم القراءة والكتابة في العالم هي تلك المدارس الموجودة في نيوزيلندا. وتتّضح ميزة هذه المدارس من أن المعلمين يختارون لهم مساعدين من التلاميذ.

- الاقتصار على النموذج الواحد قاصر: التلاميذ في المرحلة

الابتدائية يبحثون عن النموذج الحسن الذي يقتدون به. ويفهم ذلك مما يؤدّونه من دور في تقليد الكبار في سلوكهم. ويمكن أن يكون الآباء والأمهات من بعض الوجوه نماذج حسنة للأطفال. ويأتي بعد الآباء والأمهات المعلمون والمعلمات. ويختار الطفل ذلك المعلم الذي يجد في خصائصه الشخصية ما يناسبه فيستبطنها. ولكل منا معلمون أعجبنا بهم في المدرسة الابتدائية. وفي مجتمعاتنا يكون المعلمون بشكل عام قد حصلوا على تعليم أعلى من أولياء الأمور. ومن هذا المنطلق يمكن أن يكون المعلمون والمعلمات أسوةً حسنةً للتلاميذ والتلميذات.

معلّم الصف الواحد من زاوية بعض التلاميذ على الأقل قد لا يمثّل بالنسبة إليهم الأسوة الحسنة. تعليم هذا المعلم التلاميذ أنفسهم مدة خمس سنوات يخفّض أعداد النماذج إلى شخص واحد فقط. وزيادة النماذج تولّد للتلاميذ فرصة الاختيار، وتعني الغنى، وتعني نماذج حسنة بالنسبة إلى أكبر عدد من التلاميذ.



التعليم في تركيا مختلط في جميع المراحل، باستثناء مدارس خاصة قليلة جداً في المرحلة الثانوية للبنات

- مشكلة الجنس المخالف: يظهر من التطبيقات الفعلية في تركيا أن مهنة التعليم في طريقها نحو التحوّل إلى مهنة الجنس الناعم. وعندما يُنظر إلى صفوف إعداد معلمي المدارس الابتدائية في كليات التربية يُلاحظ أن الأغلبية العظمى هم من البنات. وهكذا، سوف تزداد نسبة المعلمات في المدارس الابتدائية سنةً بعد أخرى، ومن ثَمَّ تنخفض نسبة المعلمين. كانت هذه الحال نفسها موجودة في دول أجنبية، ولكن كثيراً من هذه الدول وجدت الحلّ في الاحتفاظ بنسب متقاربة من المعلمين والمعلمات في هذه المرحلة.

لعل أهم محذور يجابهنا من هذا التطبيق هو اختيار النموذج؛ فقد تشكّل المعلمات نماذج حسنة للتلميذات، ولكنهن - بسبب الفروق الجنسية - لا يستطعن أن يكنّ كذلك بالنسبة إلى التلاميذ. ويكون من الطبيعي تنشئة التلاميذ كذكور، وتنشئة التلميذات كإناث، ولكن ليس من الطبيعي تنشئة أحدهما مكان الآخر، أو حمل أحدهما خصائص الجنس الآخر.

وقد ظهرت نتيجة مماثلة في الدراسة التي أُجريت على البحارة؛ فالبحارة يقومون بسفرات تستمر شهوراً طويلة، ولا يوجدون في بيوتهم. أما الزوجات، فيقمن بدور كل من الزوج والزوجة في آنٍ واحد. ولهذا السبب، فإن أولاد البحارة يحملون خصائص تقرب من خصائص الإناث.

وفي تركيا يطبق نظام التعليم المختلط، ويوجد نتيجة لذلك التلاميذ والتلميذات في الصف نفسه. ولا يمكن أن تكون المعلمات نماذج حسنة للتلاميذ بسبب الفروق في الجنس. وتولّي معلم الصف مهمة تعليم درسين فقط في هذا الصف يعني تولّي معلمين آخرين أو معلمات أخريات تعليم باقي الدروس. وهذا يعني حلّ هذه المشكلة إلى درجة معينة. ولكن الحل الأساسي يتحقق بالعمل على تساوي أعداد البنين والبنات ممن يُقبلون في كليات التربية.

- التربية والتعليم والتنشئة غير الديمقراطية: التربية والتعليم يضعان أسس الديمقراطية في أيّ بلد من بلدان العالم. ويدخل في مثل هذه التربية والتعليم تلك التي تقدّم في العائلة، والتي تُدعم في المدرسة. ولما كانت الديمقراطية تعني حكم الأغلبية، والأصوات المتعددة، وحرية الفكر، ومشاركة الجميع؛ فإن هذه الممارسات إنما توضع أسسها بالنظرية والتطبيق. مفهوم معلم الصف يناقض المبادئ الديمقراطية بكل أشكالها؛ فالمعلم الواحد، أو المعلمة الواحدة التي

التعليم الابتدائي في تركيا بخلاف بعض الدول العربية لمدة خمس سنوات، يليه التعليم المتوسط لمدة ثلاث سنوات أخرى



تدرس التلاميذ أنفسهم في مرحلة من المراحل العمرية الخطيرة، لا تستطيع أن تتجرّد من ميولها السياسية في الصف، فتوجّه هؤلاء التلاميذ بالشكل الذي تراه طوال اليوم مدة خمس سنوات متتالية. ويكون هذا التوجيه على الأغلب أحاديّ الاتجاه، في الوقت الذي نحن في أمس الحاجة فيه إلى تعدّد في الاتجاهات تقتضيه الديمقراطية.

الكتاب المقرّر الواحد

كما أن تلاميذ صف معيّن من التعليم الابتدائي يسيرون بمعلم أو معلمة واحدة مدة خمس سنوات متوالية؛ فإن البرامج التربوية في جميع المراحل التي تسبق المرحلة الجامعية تطبّق نظام الكتاب المقرّر من وزارة التربية القومية التركية. فالوزارة تحدد الخطوط الأساسية للمنهج، والشروط التي يجب توافرها في المؤلفات، وتتقدم دور النشر بمؤلفاتها، ويُجاز منها ما يستوفي هذه الشروط المطلوبة. وقد يُجاز في مادة دراسية واحدة أكثر من كتاب واحد. ولكن أمر اختيار الكتاب يُترك إلى إدارة المدرسة، وتكون النتيجة اختيار أحد هذه الكتب المجازة. ويجد التلاميذ في الصف الواحد كتاباً مشتركاً واحداً في مادة دراسية واحدة. وقد يختلف ذلك عن الكتاب المختار في المستوى نفسه في مدرسة مجاورة، إلا أن ذلك لا يعني شيئاً بالنسبة إلى هؤلاء التلاميذ. وهو الآخر يتحول في النهاية إلى شكل من التطبيق لا يخلو من محاذير تربوية. النتيجة النهائية تطبيق نظام الكتاب المقرّر الواحد.

إن نظام الكتاب المقرر الواحد يعني الاكتفاء بمؤلف لكاتب ذي أفكار معينة محددة، وترك الأفكار الأخرى للمؤلفين الآخرين. وهذا النظام يناقض ما هو مطلوب في الابتكار من الأفكار ذات الاتجاهات المتعددة، وإيراد البدائل المختلفة التي تعكس التنوع والغنى في الفكر والعمل. ومن جانب آخر، فإنه يتضمن محاذير أخرى، لعل أهمها تربية أجيال متطرفة باتجاه فكري واحد.

قبل عقد من الزمان، أو أقلّ من ذلك، أقرّت وزارة التربية الوطنية التركية قراراً تربوياً صائباً يتماشى مع متطلبات التربية الحديثة. تضمن هذا القرار ترك أمر اختيار الكتب إلى أولياء الأمور. وحصل نتيجة لذلك أن المعلم عندما ارتاد صفه وجد في أيادي التلاميذ كتباً مختلفةً قد يتعدى عددها أصابع اليدين، فتحيّر في أمره، ولم يدرِ ما يفعل، وأيّ كتاب يختار منه ما يدرّسه؛ لأن المعلمين والمعلمات لم يتدرّبوا على ذلك، سواء قبل الخدمة أم في أثنائها. فحصلت ضجة كبيرة بين المعلمين والمعلمات أدّت إلى إلغاء هذا القرار الصائب بعد سنة دراسية واحدة فقط.

الثانويات المهنية

في تركيا - كما في كثير من الدول - ثانويات مهنية توجد بعد المرحلة المتوسطة، وتعدّ المهنيين المختلفين في اختصاصات مختلفة؛ لتشكّل جيش العاملين في مختلف المجالات. الثانويات الصناعية، والتجارية، والزراعية، والصحية، والبحرية، والعسكرية، وأئمة الإمامة والخطابة، والمعلمون ضمن هذه الثانويات. وامتداد هذه الثانويات هي المعاهد الموجودة في الجامعات، التي تعدّ أوساط المهنيين لمدة سنتين من الزمان بعد الثانوية. وهذه المدارس تعاني بسبب قلة الإمكانات المادية، والشح في الآلات والأدوات، أو تقادم عهدها مع الزمن، وعدم



يولي النظام التعليمي التركي اهتماماً بالعلاقة بين المدرس وتلاميذه

التمكن من تعويضها بالتكنولوجيا الحديثة. ويترتب على ذلك، ولأسباب أخرى، نقص في الإقبال عليها من الطلبة. وهكذا، لا تستطيع هذه الثانويات سدّ احتياجات العمالة في الأسواق المحلية.

وفي بداية التسعينيات، أصدرت وزارة التربية القومية التركية قراراً ببداية مشروع جديد سُمِّي بـ(LIMME)، استهدف إكساب خريجي الثانويات الذين لم يحصلوا على قبول في إحدى الجامعات

معلم الصف يتولى مهمة التعليم في الصف الأول الابتدائي، ثم يتدرج مع تلاميذه إلى الصف الثاني، فالثالث، والرابع، والخامس، إلى أن يكمل هؤلاء التلاميذ هذه المرحلة

التركية، وخريجي الجامعات الذين لم يحصلوا على وظيفة ما، مهنةً من المهن التي تحتاج إليها سوق العمالة في البلد، بإدخالهم دورات تدريبية خاصة، ومساعدتهم على الحصول على عمل، أو فتح محلات عمل خاصة لهم. وفي ظل الإمكانات المحدودة، والتطبيقات الخاطئة، أنهي هذا المشروع أيضاً مع أنه كان يستهدف - من ناحية أخرى - تخفيف الضغط عن الجامعات التركية. وخرَّج المشروع عدداً لا بأس به من هؤلاء الخريجين من تلك الدورات، ولكن بمؤهلات ناقصة لم تنفع شيئاً، أو لم تفِ بالهدف منها.

لقد كان الطريق أمام خريجي الثانويات المهنية مفتوحاً للدخول إلى كل كليات الجامعات المختلفة في حالة حصولهم على الدرجات المطلوبة في امتحانات إنهاء المرحلة الثانوية، وهو ما يزيد الإقبال عليها إلى حدّ ما. وكانت نتيجة ذلك دخول عدد لا بأس به من خريجي ثانويات الأئمة والخطابة إلى الكليات الأخرى، ثم تسرُّبهم إلى مرافق

الدولة المختلفة، وهما ما أزعجا أنصار العلمانية كثيراً. ومن أجل سدّ الطريق أمام هؤلاء للدخول إلى كليات غير كلية الشريعة صدرت في نهاية العقد الماضي القوانين التي تلغي متوسطات الأئمة والخطابة، وتمنع دخول خريجي الثانويات المهنية الكليات التي لا تساير دراستهم. وكان مثل هذا القرار سياسياً، وضربة مبرحة للثانويات المهنية. وحرم هذا القرار خريجي ثانويات الأئمة والخطابة من الالتحاق بالكليات الأخرى، وشمل القرار معها باقي الثانويات المهنية. وهكذا، أفلت نجمة الثانويات المهنية، وأخذت لا تلقى الاهتمام اللازم كما كانت في سابق عهدها.

وتعلو الأصوات في كل مرة أن تركيا بحاجة ماسة إلى طاقات عمالة وأخرى وسيطة تعدّ من الثانويات المهنية أو المعاهد المهنية، ولكن هذه الأصوات تبقى خافتةً من دون جدوى، ولا تلقى آذاناً مصغية، أو تحول دون إجرائها حوائل مختلفة تمنع القيام بما يتناسب واحتياجات البلد في هذا المجال. وهكذا، تكون الثانويات المهنية حتى اليوم متعثرةً في خطاها، لا تستطيع مجاراة التطورات الحديثة، وسدّ الثغرة التي ما تفتأ تكبر في ميادين الحياة المختلفة.

تعليم اللغات الأجنبية

في الثمانينيات من القرن الماضي وجدت تركيا نفسها في خضم انفتاح واسع على دول العالم المختلفة عامة، وأوربا خاصة. وكان نتيجة هذا الانفتاح طلب متزايد على تعلّم اللغات الأجنبية. لقد زاد الاهتمام باللغات الأجنبية في تلك السنوات بشكل لافت للنظر، ولا يزال ذلك ساري المفعول حتى يومنا هذا.

كانت اللغات الأجنبية تدرس في تركيا منذ مدة طويلة جداً، وكان تدريس هذه اللغات يبدأ من المرحلة المتوسطة تحت ثلاث لغات، هي: الإنجليزية، والألمانية، والفرنسية. وكان التدريس يتم على أساس اختياري لواحدة من هذه اللغات. وكانت أكثر من لغة أجنبية واحدة تدرس في مدرسة واحدة، وكانت كليات التربية تعدّ الكوادر التي تقوم بمهمة التدريس. لقد تغيّرت الوضعية في العقدين الأخيرين بشكل خاص من عدة وجوه:

- زادت الرغبة في دراسة اللغة الإنجليزية زيادةً منقطعة النظير. وفي المقابل، قلّت الرغبة في دراسة اللغتين الألمانية والفرنسية بشكل لافت للنظر، حتى إن بعض الثانويات لم تستطع أن تفتح شعبة واحدة لأيّ من اللغتين الألمانية والفرنسية، وأضحت في حيرة من أمرها بما ستكلّف ما لديها من مدرّسي هاتين اللغتين من مهام.
- أضافت بعض الجامعات سنة إضافية كاملة لدراسة لغة أجنبية سُمِّيت بسنة الاستعداد.
- أضيفت إلى دراسة بعض الثانويات سنة إضافية كاملة لدراسة لغة أجنبية سُمِّيت بسنة الاستعداد أيضاً، وحوَّلت ثانويات أخرى التدريس كله بلغة أجنبية.
- سحب تدريس اللغات الأجنبية إلى سنوات مبكرة، وأدخلت إلى برامج المرحلة الابتدائية.
- أضحت دراسة اللغات، والحصول على وثيقة نجاح، من متطلبات الدراسات العليا في الجامعات. وأقرّت بعض الجامعات تدريس بعض الدروس بلغة أجنبية، وهي على الأكثر اللغة الإنجليزية.
- بدأت الدولة بتقديم علاوات مادية على رواتب الموظفين ممن يتفوقون في امتحانات اللغات الأجنبية التي تجريها الدولة، من دون تحديد لعدد اللغات، وبمقادير تتناسب مع ما يحصل عليه الموظف من درجات في هذه الامتحانات.
- أضحى الحصول على درجة عالية، والنشر بلغة أجنبية، من متطلبات الترقيات العلمية الأكاديمية في الجامعات.
- يجد المرء بين المثقفين حسرةً ولوعةً وتمنياتٍ لتعلُّم لغة الكفار كما يقولون، وشعوراً بالإعجاب بمن يجيد ذلك.

ومع هذا الاهتمام الزائد على المستوى الرسمي، فقد يسأل الفرد: ترى هل حقّقت اللغات الأجنبية التي تدرس في تركيا أهدافها؟ الجواب عن هذا السؤال قطعاً بالسلب، وقد ورد ذلك على لسان المسؤولين في وزارة التربية التركية القومية؛ ففي افتتاح مؤتمر تربوي[1] أقيم في أزمير عام ٢٠٠٦م أكّد المدير العام للتربية

الكتابة الخلاقة، سواء أكانت في اللغة المحلية، أم الأجنبية، أم غير اللغة، تحتاج إلى تدريبات كثيرة، واكتساب مهارات مختلفة بمرور الأيام والسنين

والتعليم في وزارة التربية القومية التركية قصور اللغات الأجنبية في تحقيق أهدافها على رغم ما تُصرف من أموال باهظة لهذا الهدف، وقال: منذ أكثر من عشرين سنة، عندما تلكّأ أولادي الذين كانوا يجيدون اللغة الإنجليزية في اللغة الإنجليزية في تركيا، وعندما كنت أدرس اللغة العربية في كلية الشريعة، كنت أجد أن تعلّم اللغات في تركيا ليس على ما يرام. وكتبت في هذا المجال عدة مقالات[٢].

تعلّم اللغات المحلية والأجنبية، بما فيها لغة الأم، ينبني على أربعة أسس لابد أن تُؤخذ جميعاً في الحسبان في الوقت نفسه، هي: الاستماع، والمحادثة، والقراءة، والكتابة. وينبغي البداية بهذه المراحل بالترتيب أول وهلة، ثم تطبيق جميعها معاً فيما بعد. أما خطوات تعلّم اللغات فهي كما يأتي:

- الاستماع: سماع اللغة هو المرحلة الأولى من التعلّم؛ فالطفل يستمع إلى أفراد العائلة عامة، والأم خاصة، مدة قد تفوق السنة، قبل أن يبدأ بتلفظ كلمته الأولى. وأفضل الاستماع ما كان وجهاً لوجه؛ إذ يستطيع الفرد أن يلاحظ حركة الشفاه، وتعبيرات الوجه، وتناسق الصوت مع كل ذلك. وهذا يعني أن الآذان لابد أن تتعود على سماع الألفاظ المختلفة التي تأتي من البيئة، وهذا ما يسمى بتدريب الأذن.

لقد درسنا لغة أجنبية سنوات طويلة من العمر في بلداننا، ولكننا عندما ذهبنا إلى البلد الذي يتكلم أهله هذه اللغة تحيّرنا في أمرنا؛ فقد كنا نصرف جهوداً جبارة للاستماع، والتركيز في كل ما يقال، وهو ما يسبّب لنا صداعاً؛ بسبب الجهد العقلي المركّز الذي نصرفه لهذا الهدف. واستمر هذا الأمر شهوراً طويلة حتى اعتادته آذاننا. وكان زملاؤنا من جانب آخر يشكون إلى معلميهم في صف اللغة الأجنبية من أن أهل هذا البلد إنما يتكلمون بسرعة عالية، وأنهم يصعب عليهم مواكبتهم.

ومع أن التعلم اللاحق لا يحتاج إلى هذه المدة الطويلة، إلا أن مدة كافية مركزة من الوقت لابد أن تُصرف لهذا الهدف في بداية الأمر. ويلجأ المعلم في تدريس اللغة الأجنبية إلى تكرار الكلمة أو الجملة مرات كثيرة حتى يسمعها التلاميذ ويقلدوها. وكما يحصل هذا الأمر مع تعلّم لغة الأم لابد أن يحصل مع تعلم اللغات الأجنبية؛ فسماع اللغة من أهلها أفضل ما يمكن أن يسهم في تعلم مثل هذه اللغة بكثير من الدقة والضبط بعيداً من اللكنة. أما إذا كان ذلك غير ممكن فيكون الاستماع إلى من يتحدثون هذه اللغة كأهلها من دون أية لكنة. وتستطيع التكنولوجيا أن تعوّض ذلك عند تعذّر الحصول عليه؛ فالمذياع والتسجيل الصوتي هما خير الوسائل التي يمكن استخدامها لهذا الهدف. أما التلفاز، وجهاز التسجيل المرئي، والأفلام الغنية بالمرئيات، فتشغل الفرد بمرئياتها ومؤثراتها الصوتية، فتفوت المرء كلمات وعبارات كثيرة.

- المحادثة: مرحلة المحادثة هي المرحلة اللاحقة للاستماع. وتبدأ المحادثة بالتقليد والمحاكاة في بداية الأمر؛ لتدخل بعد ذلك مرحلة من التفكير والتركيب والتجديد. والهدف الأساسي من المحادثة هو تحقيق الطلاقة اللغوية لدى الأطفال. وتعني الطلاقة في الحديث التكلم الصحيح الغنيّ بالمفردات المبتكر والمقنع بالسرعة اللازمة من دون تلكّؤ أو تعثُّر. ولكن تحقيق الطلاقة لا يتم بسهولة ويسر، وإنما يحتاج إلى ما فيه الكفاية من الوقت والتدريب اللازمين.

تتضمن المحادثة جانبين مهمين لا يقلاّن أهميةً بعضهما عن بعض، ويتطلب كل منهما تدريباً خاصاً. وفي كلتا الحالتين يكون الطفل صاحب عطاء؛ إما متحدثاً، وإما مستفسراً. يتضمن الجانب الأول التعبير عن خلجات النفس، أو كل ما يجول في ذهن الفرد من أفكار، تعبيراً صحيحاً وصائباً. أما الجانب الثاني، فهو البحث عن الحقائق بطريقة لفظية؛ أي: إثارة الأسئلة. الجانب الأول نوعان: النوع الأول يتضمن إجابات خاصة ومحدودة لا يمكن الخروج عنها لأسئلة معينة، وهو مجال التحصيل بشكل خاص، أو الخبرات المتراكمة التي تتجمع لدى الطفل بمرور الأيام والسنوات. أما الجانب الثاني، فهو المجال المفتوح الذي يعتمد تركيبه على ابتكارات الفرد، ويؤدي فيه الخيال بشكل خاص دوراً أساسياً، وهو مجال الابتكار. وفي العملية التعليمية تخلق مواقف خاصة، أو تعرض صور معينة، ويطلب من الطفل إثارة ما يمكن من أسئلة حول هذه المواقف أو الصور. والغنى في استفسار الأسئلة هو الآخر ميدان خاص للابتكار.

وفي بداية تعلم لغة أجنبية لابد أن يُصرف أولاً فصل دراسي واحد على الأقل للاستماع والمحادثة، وهذا جانب مهم يفتقده النظام

المدرسة الحديثة تركز في تعليم الطرائق التي توصل إلى المعلومات، بدلاً من تقديم المعلومات الجاهزة



التربوي التركي في تعليم اللغات الأجنبية.

- القراءة: تناول رضا[٣] القراءة في مقالين علميين مستقلين. فيمكن للقراءة أن تسبق الكتابة مع أن المتعارف عليه أن يُبدأ تعلُّمهما معاً مع بداية المرحلة الابتدائية. ومن هذا المنطلق، يمكن تعليم الأطفال القراءة من سنوات رياض الأطفال. والقراءة مهمة جداً لنهل العلم من مصادره أينما كان، سواء أكان ذلك في تعلُّم اللغة أم غير اللغة. ولكن تعلُّم اللغة ينبغي أن يسبق غيره، وتُعطى أهمية خاصة لها في برامج التعليم؛ لأن التحكم في اللغة يؤثر في كل جوانب العملية التربوية.

مع أن القراءات كثيرة ومتعددة، إلا أن قراءة القصص ينبغي أن تحتل مكاناً خاصاً من أجل تشكيل عادة القراءة لدى الأطفال، ومتى تكوّنت عادة القراءة تكون التربية قد حققت أهم أهدافها. لقد تناول رضا[٤] قراءة القصص ودورها في هذا المجال، ومسؤوليات العائلة والمدرسة، في عدد من المقالات. وليس من باب المصادفة أن يكون أول أمر ربّاني للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - هو «اقرأ». وكلما يجيب النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - جبريل: «ما أنا بقارئ»، يكرّر له جبريل الأمر الربّاني. وأغلب الاحتمال أن المقصود من هذا التكرار هو تشكيل عادة القراءة لدى النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين جميعاً. ويبدو لي أن النظام التربوي التركي لا يستطيع أن يشكّل عادة القراءة لدى الأطفال. ومن الإحصائيات النادرة التي تؤيد ذلك أن الفرد الياباني يقرأ ما معدله ٢٦ كتاباً في السنة، أما الوضع في تركيا فهو معكوس ذلك؛ أي أن ٢٦ مواطناً تركياً يقرؤون كتاباً واحداً في السنة. ويتأتى ذلك من تأكيد البرامج للقواعد والنحو والصرف، التي تصرف الفرد عن القراءة، وتخلق لديه الضجر والملل، وتشكّل لديه اتجاهات سلبية نحو التعليم والتعلّم. ويشكّل الاهتمام بقراءة القصص الحل السليم في هذا المجال؛ لأن القصص سرد أحداث تتضمن كثيراً أو قليلاً من الخيال بأسلوب شائق جذاب كتبها من يجيدون الفنون اللغوية. ويتضمن القرآن الكريم، الذي هو في أصله كتاب أحكام دينية، كثيراً من قصص الأقوام السابقة التي وردت في سور كثيرة. أضف إلى ذلك أن سورة واحدة سُمِّيت بسورة القصص، وجاء أمر ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦) تأكيداً لأهمية هذه القصص في حياة الإنسان. وتؤدي قراءة القصص دوراً مهماً في تشكيل عادة القراءة. وإهمال هذا الجانب المهم هو السر الذي يكمن في عدم نجاح اللغات المحلية والأجنبية في تحقيق أهدافها.

لقد خطت وزارة التربية القومية التركية خطوات حثيثة في السنوات الأخيرة من أجل حلّ هذا الإشكال فيما يخصّ اللغة القومية. وبرزت الخطوة الأولى في منع تعليم قواعد اللغة حتى الصف الخامس

الابتدائي. وكانت الخطوة الثانية إلزام كل طالب أن يقرأ مئة كتاب حدّدتها الوزارة قبل إنهاء مرحلة ثماني السنوات المخصّصة للتعليم الأوَّلي الإلزامي. ومع الإيمان بأهمية هذه القرارات إلا أن قراءة مئة كتاب في ثماني سنوات ليست بكافية لتشكيل عادة القراءة؛ فلابد من صرف الجهود اللازمة من أجل زيادة هذا العدد أضعافاً مضاعفةً. ولا يتم ذلك إلا بتشكيل مكتبات الصفوف الغنية بالقصص، المفتوحة للطلبة دائماً. إن تشكيل عادة القراءة لابد أن ينسحب على اللغات الأجنبية كما هو الحال مع لغة الأم.



إن نظام الكتاب المقرر الواحد يعني الاكتفاء بمؤلف لكاتب ذي أفكار معينة محددة. وهذا النظام يناقض ما هو مطلوب في الابتكار من الأفكار ذات الاتجاهات المتعددة

- الكتابة: المرحلة الأخيرة التي لابد من إكمالها لكي يتم تعلّم اللغة هي الكتابة. تبدأ الكتابة بتعلّم الحروف والكلمات والجمل، ولكنها لا تقتصر على ذلك، بل تنسحب إلى تشكيل الجمل والعبارات المختلفة. ويُستهدف أخيراً تحويل جميع الأفكار التي تراود الأذهان، وتعبّر عن خلجات النفس البشرية، إلى سطور مخطوطة أو مطبوعة على الورق أو الآلة المبرمجة؛ بغية الحفاظ عليها من أجل العودة إليها، أو مشاركة الناس الآخرين في نشرها بوسيلة من وسائل الإعلام المعروفة.

ليس هذا فحسب، بل هناك جانب مهم، هو اكتساب مهارة التفكير كأهلها؛ لأن اللغة ليست كلمات وعبارات فحسب، بل تتضمن طرز التفكير الخلاق. فاللغة ما هي إلا ثقافة متراكمة لآلاف السنين، والتعبير الحر عما يجول في خلجات الفرد بالتسجيل على الورق أو الآلة المبرمجة هو الذي يحقق ذلك.

الكتابة الخلاقة، سواء أكانت في اللغة المحلية، أم الأجنبية، أم غير اللغة، تحتاج إلى تدريبات كثيرة، واكتساب مهارات مختلفة بمرور الأيام والسنين. ولا بد أن تبدأ هذه التدريبات منذ المراحل الأولى من التعليم الابتدائي. لقد تناول رضا[٥] هذا الموضوع في مؤتمر تربوي أقيم في جامعة باموق قلعة في تركيا عام ١٩٩٨م، ونشر في مجلة الكلية في عدد خاص عام ١٩٩٩م. القراءة الغنية، والقراءة المبتكرة، وتسجيل الملاحظات على تعبيرات التلاميذ، والتلخيص، وتكملة القصص، وإيجاد عناوين لنصوص معينة، وكتابة قصص حول عناوين معينة، وإثارة الأسئلة، وإيراد الأسباب، وتوقع النتائج، وتحويل المصوّرات إلى كتابات، والتنظيم، والترتيب، والتصنيف، وإقامة الخيال، وإيراد البدائل، وتطوير النصوص، والمبالغة، وعكس الأفكار، وحلّ المشكلات، والعصف الذهني؛ ما هي إلا أمثلة من التقنيات التي لابد من تطبيقها من أجل تحقيق مثل هذا الهدف. ومرةً أخرى، فإن ما تطبّقه برامج النظام التربوي التركي عامة، وتعليم اللغات الأجنبية خاصة، هو القليل اليسير من هذه التقنيات.

امتحانات إنهاء المرحلة الثانوية

لا تستطيع الجامعات التركية قبول جميع الطلبة الذين يتقدمون إلى الدراسة في هذه الجامعات. لقد كانت نسبة الذين قُبلوا في الجامعات من الذين تقدموا إليها في عام ٢٠٠٢م ١٩٪، غير الذين قبلوا في الكلية المفتوحة. وفي واقع الحال، فإن هناك إقبالاً شديداً على الدراسة في الجامعات التركية، ويتأتى ذلك من أن الذين يتخرجون

في التعليم العالي يكون حظهم من الحصول على وظيفة في القطاع الحكومي أو المدني أوفر من غيرهم ممن لم يحصلوا على التعليم الجامعي، مع أن ذلك غير مضمون لكل الخريجين؛ إذ امتدت يد البطالة في تركيا إلى خريجي الجامعات أيضاً. لذلك، فإن هناك منافسة شديدة للحصول على درجات عالية في هذه الامتحانات.

امتحانات إنهاء المرحلة الثانوية هي الامتحانات التي تجريها هيئة من التعليم العالي من أجل بيان الطلبة الذين يدخلون الجامعات والمعاهد التركية وكلياتها وأقسامها المختلفة، ويسمى باللغة التركية (ÖSS) أو (ÖSYS). وكان هذا الامتحان يُجرى على مرحلتين. أما في السنوات الأخيرة، فقُصر على امتحان واحد يُجرى في النصف الثاني من شهر يونيو (حزيران) من كل سنة. وتعتمد جميع أسئلة هذه الامتحانات على الاختيار من متعدِّد (خمسة اختيارات). وتتضمن هذه الامتحانات أكثر من مئة سؤال، يُجاب عنها في ثلاث ساعات من الوقت. ويختار منها الطالب ما يناسب الذي يروم التخصّص فيه في الجامعة.

وقد أضحت هذه الامتحانات مداراً لنقاش مستمر فيما تقيس، وكفايتها، وصلاحيتها، وصدقها، وثباتها. وفي واقع الحال، تعدّ هذه الامتحانات كابوساً لكثير من الطلبة، وتثير فيهم مخاوف مختلفة، وهي في الوقت ذاته أهم الامتحانات التي تُجرى في تركيا، خصوصاً أنها هي التي ترسم مستقبل تركيا في تحديد أياديها العاملة، وكوادرها المثقفة، وإدارييها، وعلمائها. لقد أُجريت في السنة الأخيرة بعض التعديلات المهمة، التي اقتضت إعطاء دور جزئي للدرجات التي يحصل عليها الطالب في المرحلة الثانوية.

وقد أجرى أحد الباحثين الأتراك في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي دراسة حلَّل فيها أسئلة هذه الامتحانات لعدد من السنوات، وتوصّل إلى أنها تقيس مستوى المعرفة والاستيعاب، وهما مستويان يمثّلان أسهل المستويات في تصنيف (بلوم) للأهداف الذهنية المعرفية. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: هل هذه الامتحانات، التي تقيس هذه المستويات المنخفضة من الأهداف التربوية المعرفية الذهنية، كافية لإقرار مسألة مهمة تتعلق بمستقبل تركيا؟ الجواب قطعاً كلا. ومن جانب آخر، فإن التحليل الدقيق لمثل هذه الامتحانات من وجهة نظر التقويم والقياس يظهر ما يأتي:

- الامتحان الواحد غير كافٍ لبيان قرار مهم جداً لما يمكن أن يصلح له الطالب في المستقبل؛ فينبغي أن يكون أكثر من امتحان، ووسائل تقويم من أنواع مختلفة، إذا أريد الدقة في اتخاذ قرار مهم كهذا.
- الأسئلة من نوع واحد، وهو الاختيار من متعدد، لا تستطيع أن تقيس كل مستويات الأهداف الذهنية المعرفية في تصنيف (بلوم)، وينبغي أن تستخدم معها أسئلة المقال.
- لا تقيس هذه الأسئلة الأهداف الوجدانية والعملية التطبيقية التي تعدّ مهمة جداً، وتكمل الأهداف الذهنية المعرفية، ولابد

الامتحانات محل نقاش مستفيض





تعلّم اللغات المحلية والأجنبية، بما فيها لغة الأم، ينبني على أربعة أسس هي: الاستماع، والمحادثة، والقراءة، والكتابة

من مرافقتها باختبارات قياس المهارات والاتجاهات.

- ينبغي أن ترافق هذه الامتحانات امتحانات أخرى تجريها الكليات المختلفة، التي يتطلب النجاح فيها قدرات ومهارات مختلفة.

التربية الابتكارية

على صفحات الصحف والمجلات، وفي محطات الإذاعة وشاشات التلفاز التركية، يسمع الإنسان بين مدة وأخرى شكوى عامة من الصحفيين والمربّين في مناسبات كثيرة، مضمونها أن النظام التربوي التركي يركّز في الحفظ الآلي، فما هذا الحفظ الآلي الذي يركّز فيه النظام يا تُرى؟. النظام الذي يركّز في الحفظ الآلي هو الذي يركز في حشو أدمغة الطلبة بالمعلومات، وطلب استعادة هذه المعلومات كما هي مشافهة أو تحريراً. وقد يسأل سائل: وما العيب في ذلك؟ أليس ذلك ضرورياً؟! ألسنا بحاجة إلى المعلومات في عالم تنهمر فيه هذه المعلومات بغزارة كالسيول؟!. الجواب عن ذلك: نعم، إننا نعيش في عصر يسمَّى (عصر الانفجار المعرفي)، وبحاجة ماسة إلى المعلومات، وهي التي تشكّل القاعدة لغيرها، ومن دونها لا يمكن أن يتم شيء. ولكن هذه المعلومات من الكثرة بحيث يستحيل إيصالها كلها إلى الطلاب، ويرجع سبب ذلك إلى أن اليوم المدرسي محدود، وسنوات العمر قصيرة. وترى التربية المعاصرة أنه من الأفضل تعليم الطلبة كيفية الوصول إلى هذه المعلومات، بدلاً من إعطاء اللقمة الجاهزة إليهم. وهذا يعني أن المدرسة الحديثة تركز في تعليم الطرائق التي توصل إلى المعلومات، بدلاً من تقديم المعلومات الجاهزة. وهذا ما يدرّب الطلبة على الاستقلال في الحصول على التربية، بدلاً من الاعتماد على غيرهم. مَثَل المدرسة المعاصرة في حالها هذه كمثل الذي يعلم شخصاً كيف يصيد السمك، بدلاً من إعطائه سمكة في كل يوم، أليست حياة الإنسان شبيهة بذلك؟ تبدأ بالاتكالية على الأبوين، ثم ما يفتأ الإنسان يستقلّ في أموره شيئاً فشيئاً. الاستقلال هو المعول عليه في حياة الإنسان، وهو ما تستهدفه التربية المعاصرة.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية أخرى نقول: إن النظام التربوي التركي تركّز على أقلّ المستويات من الأهداف التربوية الذهنية في تصنيف بلوم، التي يُطلق عليها (المعرفة). أما المستويات الأخرى في تصنيف بلوم، التي هي أعلى منها، ويجب الاهتمام بها إلى جانب المعرفة، فهي: الاستيعاب، والتطبيق، والتحليل، والتركيب، والتقويم.

وينبغي معرفة أن الابتكار يمكن أن يتحقق فقط بالتركيز في المستويات العليا من هذه الأهداف. ليس هذا فحسب، بل إن هناك أهدافاً وجدانية ذات خمسة مستويات، وأهدافاً عملية ذات سبعة مستويات. إن الابتكار الفعلي يتحقّق إذا دمجت هذه الأهداف التربوية، وركّزت في مستوياتها العليا.

من كل هذا التوضيح تظهر الجوانب الناقصة في النظام التربوي التركي إلى الوجود. ولكن السؤال الذي يمكن أن يطرح نفسه: أليس الذي يُقال في وسائل الإعلام المختلفة من إذاعة وتلفاز وصحف، أو الذي يُطرح على صفحات الكتب والمجلات، هو ادّعاءات؟ هل هناك ما يؤيّد ذلك فيما يخصّ البحوث والدراسات؟.

هناك دراسة لنيل درجة الماجستير قدّمتها حليمة آتكنجي[٦] إلى جامعة جناق قلعة عام ٢٠٠١م بعنوان: «تأثير برامج التعليم الأولي – المرحلة الأولى في تطوير التفكير الابتكاري» لها علاقة بهذا الموضوع. فقد حلّلت الباحثة برامج دروس المعلومات الحياتية والعلوم الاجتماعية والعلوم في التعليم الابتدائي، وطبّقت على تلاميذ الصف الأول في إحدى المدارس الابتدائية، البالغ عددهم ٣١ تلميذاً، وتلاميذ الصف الخامس الابتدائي في المدرسة نفسها، البالغ عددهم ٤٣ تلميذاً، اختبار تورانس للابتكار، وقارنت بين المجموعتين. وكانت نتيجة هذه الدراسة أن تلاميذ الصف الأول كانوا إحصائياً أكثر ابتكاراً من تلاميذ الصف الخامس. وتوصّلت الباحثة إلى أن برامج التعليم الابتدائي ليست فعّالة في تحقيق الابتكار.

والآن قد يسأل سائل: هل يعوّل على نتيجة دراسة واحدة؟ هل يمكن استنتاج ما يمكن أن يعمّم على النظام التربوي التركي؟.

لقد أجريت هذه الدراسة على مدرسة ابتدائية واحدة تضمّنت صفين، هما الأول والخامس. وتضمّنت العينة في المجموع ٧٤ تلميذاً وتلميذة. ويكون بذلك من الصعب جداً إجراء تعميم على المدرسة نفسها، وعلى مدارس أخرى في المدينة نفسها، أو البلد كله. ويحتاج الأمر إلى دعم من دراسات أخرى؛ لأن مسألة التعليم تعتمد أساساً على المعلمين والمعلمات، وهناك فروق فردية كبيرة بين هؤلاء المعلمين والمعلمات والمدارس أيضاً؛ إذ تختلف المدارس في مستوياتها. وقد أشار المدير العام للتربية والتعليم في مؤتمر TAKEV[٧] إلى أن الهوة واسعة جداً بين مستويات المدارس التركية؛ فما يصحّ على معلم أو معلمة قد لا يصحّ على

غيرهما. وما يصحّ على مدرسة قد لا يصحّ على مدرسة أخرى.

وربما شعرت وزارة التربية القومية التركية بهذه النقيصة بعد عام ٢٠٠١م؛ فأجرت تعديلات على النظام التربوي فيما يتعلق بالتربية الابتكارية. أبرزها تطبيقات الذكاء المتعدد، والتقارب الإنشائي في التربية. ولعل التغيير المهم في هذا الصدد أن الوزارة أصدرت في هذه المرة كتباً مساعدة للمعلمين والمعلمات من أجل تطبيق ذلك. ومع كل ذلك، فإن الوقت اليوم مبكر جداً لبيان إقرار نجاح القانون الجديد في القرية القديمة على حدّ تعبير المثل الشعبي التركي.

أما نحن، فننظر إلى التربية الابتكارية من جانب آخر. لقد كتبنا عدداً من المقالات[٨] في هذا الصدد؛ فالحلقة المفقودة في التربية التركية هي الحلقة نفسها المفقودة في التربية العربية، وهناك تشابه كبير بين التربيتين في هذا المجال خاصة.

أما التربية الابتكارية، التي تشكّل الحلقة المفقودة التي نقصدها، فيمكن تقسيمها قسمين، هما:

أ- التربية الابتكارية العامة: وهي تخصيص درس في جميع مراحل التعليم، وهي التربية التي تُعطى إلى الطلاب بشكل عام ومستقلّ عن الدروس الأخرى، وتدرّس عن طريق شخص مدرّب في هذا المجال. وتُجرى تطبيقاتها العملية في جميع المراحل الدراسية. ويقترح تخصيص ساعة نظرية تُدعم بساعة تطبيقية.

ويبدو واضحاً أن دي بونو[٩] يؤيّد هذه الفكرة بتأكيده تعلّم مهارات التفكير الابتكاري بشكل مستقلّ ومباشر. ويدافع هذا الكاتب عن فكرة فحواها أن الفرد الذكيّ، الذي لم يتدرب على مهارات التفكير الابتكاري، لا يستطيع أن يكون مبتكراً بقدر من تدرّب على هذه المهارات وهو أقلّ ذكاءً منه؛ فالابتكارات حسب هذا الكاتب إنما تعتمد على التربية والعادات والتوقعات أكثر مما تعتمد على العوامل الوراثية.

كما يفهم من عنوان كتاب هول وويكر[١٠] إمكانية رفع القوة الابتكارية إلى خمسة أضعافها عن طريق التدريب والمران، ويجد الكاتبان في المزاح وسيلة ذات فعالية كبيرة لرفع هذه القوة.

ويؤكد إبستين[١١]، بناءً على خبراته الشخصية المبنية على التجريب في المختبر مدة عشرين سنة، أن التحليلات العلمية الدقيقة قد أظهرت كشف أسرار عملية الابتكار، وأن المهارات الصحيحة في الابتكار تستطيع أن ترفع الابتكار لدى الفرد إلى عشرة أضعافه.

ويستطيع كل إنسان - من دون استثناء - أن يكون مبتكراً إلى درجة مميزة. ويحقق الابتكار السعادة للفرد؛ لأن عملية الابتكار مصدر للفرح والسرور لكثير من الناس. ويمكن بالابتكار حلّ المشكلات التي تقلق الأفراد بشكل أفضل. إن تفجير الطاقة الابتكارية لدى الأفراد في أيدي الأفراد أنفسهم، ويمكن تحقيق عصر النهضة بالابتكار. وتحقيق الابتكار سهل وميسّر كسهولة ركوب دراجة واقفة على جانب الطريق.

ب- التربية الابتكارية الخاصة: هناك تربية ابتكارية خاصة لابد من تقديمها جنباً إلى جنب مع التربية الابتكارية العامة، وهي تلك التربية التي تخصّ أيّ درس من الدروس التي تدرّس في أي مرحلة من المراحل الدراسية؛ إذ يخصّص جزء من هذا الدرس للابتكار، ويدرّسها مدرّسو هذه المواد بعد التدريب على تطبيقات الابتكار العامة في هذه الدروس. وتكون هذه التربية جزءاً لا يتجزأ من هذه المواد الدراسية.

ويبدو من كل هذه التوضيحات أن النظام التربوي التركي لا يزال بعيداً عن تطبيقات التربية الابتكارية العامة والخاصة، ومتى استطاعت تركيا أن ترفق بنظامها التربوي ما يضمن تطبيق ذلك وجدت - لا محالة - انفجاراً في أعداد المخترعين، والمكتشفين، والعلماء، والمبتكرين، والفنانين، والأدباء، والكتّاب. المسألة هي إرادة قوية، وعزيمة راسخة، وتتبّع متواصل، وتدريب متلاحق، بعيون ثاقبة تتخذ من العلوم والآداب والفنون الجميلة منبراً، ومن التربية الابتكارية هدفاً نهائياً.

الخاتمة

لقد تمّ تفحّص النظام التربوي التركي، والتدقيق فيه تدقيقاً ذا مغزى، ومن كثب بوصفي مقيماً خارجياً وجد فيه ما لم يره الآخرون

شعرت وزارة التربية القومية التركية بالتفاوت بين المدارس التركية بعد عام ٢٠٠١م؛ فأجرت تعديلات على النظام التربوي فيما يتعلق بالتربية الابتكارية

من التربويين الأتراك الذين يعيشون في داخل هذا النظام. لقد شمل هذا الفحص الجوانب الإيجابية والسلبية من النظام. والمقال - وإن كان يتناول النظام التربوي التركي - إلا أنه يورد ما يمكن أن يكون نموذجاً للأنظمة التربوية الأخرى، سواء أكانت في البلدان النامية أم المتقدمة. وهكذا نُوقش الموضوع بما يمكن أن يكون حلاً لتلافي الجوانب السلبية، ودعماً للجوانب الإيجابية في هذا النظام وغيره من الأنظمة التربوية المماثلة أو المغايرة.

أفكار تربوية كثيرة جيدة تأتي مع الزمن في تركيا، وتطبّق مدة زمنية محدودة، ثم تتعثّر في التطبيق لأسباب كثيرة. وبدلاً من البحث عن هذه الأسباب، وتحديدها، وإقصائها واحداً بعد آخر، تخلق وسائل الاتصال المختلفة ضجة كبيرة. وخلال هذه الضجة يدلي كلّ إنسان بدلوه في الموضوع، حتى وإن لم يكن على دراية كافية به. فلا يُعطى للرويَّة والبحث العلمي مجال كافٍ. فتودي هذه الضجة بما بني من هياكل غير متكاملة لتكون في صفحة التاريخ.

المـــــراجـــــع

1- TAKEV (2006) Bildiriler Kitabı. Sempozyum: Avrupa Birliği ile Bütünleşme Sürecinde İlköğretim Eğitimi. 15 Nisan 2006. İzmir.

2- Riza. E. T. (1989) "Objectives. Expectations and Accomplishments of Language Laboratory in Teaching Arabic to Non-Arabs." Dokuz Eylul University. Faculty of Divinity Journal. V. 107125-.Riza. E. T. (1991) "An Experimental Research on Teaching Arabic to Non-Arabs." Dokuz Eylul University. Faculty of Divinity Journal. VI. 363389-. Riza. E. T. (1999) "Developing Creativity Techniques in Teaching Turkish Language." An Article Submitted to Fourth National Teacher Training symposium Held by Pamukkale University. Faculty of Education. Primary School Teacher Training Department 1516- September 1998. Pamukkale University. Faculty of Education Journal. Special Issue 1999.

٣- أنور طاهر رضا، عام ٢٠٠١م، تقنية إثارة الابتكار في القراءة (١)، مجلة المنهل السعودية، ٦٣ (٥٧٣)، ص٩٨-١٠٣. أنور طاهر رضا، عام ٢٠٠١م، تقنية إثارة الابتكار في القراءة (٢)، مجلة المنهل السعودية، ٦٣ (٥٧٤)، ص١٠٦-١١٥.

٤- أنور طاهر رضا، عام ١٩٩٤م، (قصص الأطفال: هل لها تقنية تربوية؟)، المجلة العربية، ١٨ (٢٠٢)، ص٩٤-٩٦. Riza. E. T. (١٩٩٩) "Developing Creativity Techniques in Teaching Turkish Language." أنور طاهر رضا، عام ٢٠٠٢م، (في قصص الأطفال كنوز تربوية: ليتخيّلوا - هم - نهاية القصة)، مجلة المعرفة السعودية، ٩٩، ص٥٨-٦٣. أنور طاهر رضا، عام ٢٠٠٤م، (الآثار النفسية في القصص المروية)، مجلة الأبعاد الخفية - الكويت، ٤ (٣٦)، ص١٠-١٤. أنور طاهر رضا، طبعة عام ٢٠٠٦م، (لغة الأطفال المبتكرة بين مسؤولية العائلة والمدرسة)، مجلة الأبعاد الخفية - الكويت، ٦ (٦٢)، ص١٨-٢١. Rıza. Enver Tahir. (٢٠٠٦) Yaratıcı Dil Eğitiminde Aile. Okul ve Öğrenci Sorumluluğu." Yaşadıkça Eğitim. ٩٢، ١٩-٢٤.

5- Riza. E. T. (1999) "Developing Creativity Techniques in Teaching Turkish Language."

6- Atkıncı. H. (2001) İlköğretim Birinci Kademe Programlarının Yaratıcı Düşünmenin Gelişmesine Etkileri. Yayınlanmamış Yüksek Lisans Tezi. 18 Mart Çanakkale Üniversitesi. Sosyal Bilimler Enstitüsü.

7- TAKEV (2006) Bildiriler Kitabı. Sempozyum: Avrupa Birliği ile Bütünleşme Sürecinde İlköğretim Eğitimi. 15 Nisan 2006. İzmir.

٨- أنور طاهر رضا، عام ٢٠٠٨م، الحلقة المفقودة في التربية العربية (١)، مجلة الأبعاد الخفية - الكويت، ٧ (٨٤)، ص١٠-١٤. أنور طاهر رضا، عام ٢٠٠٨م، الحلقة المفقودة في التربية العربية (٢)، مجلة الأبعاد الخفية - الكويت، ٧ (٨٥). أنور طاهر رضا، عام ٢٠٠٨م، الحلقة المفقودة في التربية العربية (٣)، مجلة الأبعاد الخفية - الكويت، ٧ (٨٦).

9- De Bono. E. (1993) Serious Creativity: Using the Power of Lateral Thinking to Create New Ideas. P. 42.

10- Hall. D. and Wecker. D. (1995) Jump Start Your Brain: A Proven Method for Increasing Creativity up to 500%. New York: Warner.

11-Epstein. R. (1996) "Capturing Creativity." Psychology Today. (29)4. 3640-.



تجارب

هل يمكننا فهم كوريا؟!

كثير ممن يزورون كوريا يعجبون مما يرون من مظاهر التقدم والتطور، من عمران ومواصلات وصناعات وجامعات، بل إن بعض الناس يصل إلى حالة الانبهار والبكاء على حالنا الذي يراوح مكانه، أو حتى ربما نتخلف.

جون هيور

ترجمة : مازن صلاح مطبقاني

الرياض - السعودية





أتيحت لي فرصة زيارة كوريا مدة سبعة أيام لحضور المؤتمر العالمي السادس لتجمع علماء آسيا في مدينة دايجون (وسط كوريا) في المدة من ٦-٩ أغسطس عام ٢٠٠٩م. فوجدت أن تجربة كوريا تستحق الإعجاب والإكبار والتقدير والدراسة. ومهما كانت السلبيات في المجتمع الكوري، التي يوردها كاتب المقالة، الذي أقدم ترجمته، فعلينا أن ندرك أن التجربة الكورية بحاجة إلى دراسة عميقة؛ لعلنا نتعلم درساً في النهضة والتطور.

أما كاتب المقال، فهو البروفيسور جون هيور، وهو أمريكي الجنسية، وأستاذ علم الاجتماع في جامعة ماريلان، وحصل على الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة كاليفورنيا فرع لوس أنجلوس، وكذلك الماجستير، وله عدد من المؤلفات حول المجتمع الأمريكي والثقافة الأمريكية. لعل من أبرزها كتابه: (المجتمع ما بعد الإنساني)، الذي يقدم فيه نقداً للثقافة الأمريكية والمجتمع الأمريكي.

وقد وردني - وهذه المقالة تعدّ للنشر - أن زاويته في صحيفة (كوريا تايمز) قد أوقفت. ولا شك أن السبب الأساسي هو النقد الشديد للمجتمع الكوري في مقالاته. وقد نُشر النصّ الذي اخترته للترجمة هنا في صحيفة (كوريا تايمز) يوم ١٠ أغسطس عام ٢٠٠٩م.

النص المترجم

نشرتُ عام ١٩٨٩م أول كتاب لي حول كوريا بعنوان: «الصفوف المتحركة» Marching Orders عن دار نشر جرينوود Greenwood، وقلتُ فيه: «إن العسكريين الذين استولوا على البلاد في Junda عام ١٩٦١م، وأمروا مواطنيهم بالانطلاق، لم يكونوا سوى مؤسسين لمجتمع جديد كلياً. والآن فقط يحلّ أفضل وقت لكوريا، ولا تزال دراما الأحداث يتم تمثيلها».

إن متابعة المجلس النيابي، وإصدار شركة إس سانجيانج Sangyong؛ حيث يتصادم القانون والخروج على القانون بطريقة روتينية عقيمة يائسة. وعند سماع التقرير الصحفي بأن نصف (درزن) من الجيش، إضافةً إلى أولئك الذين ماتوا في موقع البناء في يونجسان Yongsan في أوائل هذا العام، كانوا رهائن من قبل المحتجّين؛ مما جعلني أبدأ في التفكير أن الساعة المثالية قد انتهت، وأن دراما المعجزة الاقتصادية الكورية بدأت تفقد طعمها الدرامي.

إن أولئك الذين كانوا يأملون أن تستطيع كوريا من خلال تطورها الاقتصادي والثقافي أن تدخل إلى صفوف الدول المتقدمة بنظرة أكثر عقلانية للحياة ليعجبون الآن: هل نستطيع أن نفهم كوريا والكوريين؟

ورأيي الآن أن وصفي السابق لكوريا ما بعد عام ١٩٧١م بأنها «مجتمع جديد كلياً» كان مسوّغاً فقط بالنسبة إلى تحوُّلها الاقتصادي. أما بالنسبة إلى ثقافتها وشخصيتها، فقد استنتجتُ منذ زمن بعيد أن كوريا من حيث الأفكار لا تكاد تكون تغيّرت؛ فلا تزال كوريا قومية عاطفية وغير عقلانية كما كانت قبل الانتعاش الاقتصادي العظيم



كوريا.. أغرب ثقافة، لماذا؟

لمرحلة ١٩٦١-١٩٧١م. ويُستنتج من ذلك وصف المجتمع بأنه حديث اقتصادياً، ولكنه من الناحية الاجتماعية لا يزال قبل الحداثة؛ إذ يتضمّن كل الصدامات الثقافية غير المفهومة، التي هي طبيعته لمثل هذا التناقض التاريخي.

على الذين يريدون أن يعرفوا كوريا أن يحذروا؛ فأنتم على وشك مواجهة أغرب ثقافة قرأتم عنها أو واجهتموها، وأغرب شعب عرفتموه على الإطلاق. ودعونا الآن نوضّح مصطلح أو تعبير «غريب».

عندما نسافر إلى بلد لم نألفه – لنقل على سبيل المثال: نيبال، أو نيجيريا، أو اليابان – فإننا نجد أشياء كثيرة غريبة في هذه الأمكنة؛ فالطريقة التي يعملون بها غريبة حقاً. ولكن «الغربة» هي التي تجعل نيبال أو نيجيريا أو اليابان مثيرةً للانتباه وشائقة. الأمور في هذه الثقافات والشعوب غريبة، وهذا ما يجعل السفر يستحق العناء. وعندما نقول: إن كوريا غريبة؛ فإنه نوع مختلف من الغرابة. إن غرابة كوريا متعلقة «بصعوبة الفهم»، وليس بالضرورة لكونها شائقة.

> في نظر معظم الملاحظين المنطقيين، بما فيها نظرتي، فإن غرابة كوريا تقودنا إلى عدم الفهم أكثر من التشويق

إن الثقافات في نيبال ونيجيريا واليابان، وغيرها كثير، مختلفة وغربية بالنسبة إلى الأمريكيين والغربيين، ولكن شائقة. ولكن غرابة كوريا – من جهة أخرى – تعني أنه صعب جداً إن لم يكن مستحيلاً أن نفهم الثقافة الكورية أو الشعب الكوري.

صحيح أنه بالنسبة إلى بعض الناس يمكن أن تكون كوريا غريبة وشائقة. ولكن في نظر معظم الملاحظين المنطقيين، بما فيها نظرتي، فإن غرابة كوريا تقودنا إلى عدم الفهم أكثر من التشويق. وعدم الفهم يقوي الانزعاج والتضايق، بينما التشويق يحرّك العقل للدراسة والاستمتاع بالموضوع الشائق.

انظر إلى كوريا بسرعة من خلال هذه الأرقام الوطنية: كوريا تتقدم دول العالم في عدد المنتحرين، وفي استهلاك الكحول، وفي عمليات التجميل، وفي عدد القتلى من حوادث السير، وفي عدد المدخنين، وفي ارتفاع حالات الطلاق في السنوات العشر الأخيرة، وفي استهلاك لحوم الكلاب، وفي عدد الهواتف النقالة، وفي عدد توصيلات الإنترنت، وفي مؤشر العزلة بين كل المهاجرين الآسيويين في أمريكا، وفي الإنفاق على التعليم بالإنجليزية.

وعلى الرغم من ذلك، فمن ضمن أنقاض الغرابة وعدم الفهم ثمة استنتاجات أساسية يمكن توضيحها وفقاً لملاحظاتي السابقة، التي أسمّيها النقاط الخمس للتعريف بكوريا:

- كوريا مجتمع قَبَلي: إن مصطلح القَبَليَّة الذي أستخدمه هنا لوصف الأيديولوجية الكورية المبنية على القومية يسبق مفهوم الدولة القومية. وفي الحقيقة، فإن كوريا لم تصل تماماً إلى مرحلة الدولة القومية الحديثة في طريقة توجُّهات سلوكياتها، التي لا تزال محكومة بالعوامل الداخلية؛ مثل: التقاليد، والقرابة، والمعتقدات الشامانية.

وباختصار، لا تزال كوريا متكونة من الضمير القبلي؛ حيث روابط الدم، واللغة، والضمير المخفي، أو اللاوعي والوعي متداخلة لتكون قاعدة تفكيرها اليوم وتصرفاتها. وعلى الخط نفسه، يمكن أن نذكر الصرب، واليونان، والفلاحين الروس، والهنود الأمريكيين، والأكراد، والغجر، والأرمن، ومعظم العرب



القبلية الكورية لها تميزها من كل القوميات

الذين أظهروا سلوكاً قبلياً إلى حدّ كبير.

أولاً وأخيراً، يعرّف الكوريون أنفسهم فيما بينهم بانتمائهم الكوري، وهذا الأمر يرجع إلى المصادفة، وهو اشتراكهم في العرق الكوري، وليس وفقاً لأي معيار آخر تم تحقيقه؛ مثل: التعليم، أو الطبقة، أو الانتماء الإنساني أو الأخلاقي، أو الاتفاق العقلاني حول بعض الأفكار والفلسفات؛ فكونك كورياً يعلو على كل الاعتبارات؛ فهذه القبلية الكورية تختلف عن كل القوميات على الرغم من أن بعضها يُستخدم غالباً مكان بعض، وهو ما يواجهه الأمريكيون عند بداية احتكاكهم بالكوريين.

- الخصوصية اللغوية تحمي كوريا: إن مما يجعل القبلية الكورية ممكنة هو لغتهم؛ فلغة التخاطب القومية والوعي هما أكثر خصوصية لدى الكوريين من أيّ عنصر ثقافي آخر؛ إذ يجد معظم الكوريين أنه من المستحيل أن يفكّروا بموضوعية أو منطقية بأنفسهم أو بالآخرين خارج مجتمعهم. إن اللغة الكورية تجعل من المستحيل على الكوريين أن يفكّروا خارج ذلك المحور اللغوي - الثقافي؛ فليست اللغة مجرد آلة للاتصال بالنسبة إلى الكوريين. إنها الوعي أو اللاوعي، وهو رابط يربط بين قلوب الكوريين وعقولهم وأرواحهم. وحالما تكسب اللغة بوصفك من أهلها فإنه لا يمكنك أن تهرب من ذلك الفلك. قد لا يكون هذا الأمر



الشخصية الكورية تحير العالم

خاصاً بالكوريين وحدهم؛ لأن المجتمعات القبلية القديمة التي لها نظام لغة قبلي غالباً ما تتّصف بهذه الإمكانية. ومع ذلك، فإن درجة هذه الإمكانية المرتبطة بتراثهم اللغوي وشدّتها أمر لافت للانتباه في كوريا.

- كوريا تؤمن بخصوصيتها: صحيح أن كل مجتمع في الصورة الأسطورية التي يضعها لنفسه، وفي انتمائه القبلي، يشعر أنه خاصّ بعض الشيء. ولكن هذه الخصوصية بالنسبة إلى الكوريين هي واحدة من صفاتهم التي يُعرفون بها؛ ففي أعماق كينونتهم العاطفية والقبلية لا يقبل الكوريون أيّ نقد خارجي لثقافتهم أو شخصيتهم؛ فالكوريون لا يفكرون بموضوعية حول أنفسهم أو ثقافتهم أو مكانتهم في العالم.

وبغض النظر عن الفلسفة السطحية للمستوردات الثقافية الأجنبية؛ مثل الزي الذي يقومون بتقليده بحرية، فإنهم محصورون إلى الأبد في طريقة تفكيرهم الخاصة ومعتقداتهم أن كوريا معصومة وفريدة وعظيمة، حتى إنهم يتفوقون على القوميين العرب وقوميي وسط أوربا في شدة عاطفتهم ومفهوم الخصوصية؛ فالكوريون لا شيء إن لم يكونوا مقتنعين بهذه الخصوصية والتفرُّد.

- لا يمكن اختراق كوريا من قبل الغرب: نتيجة لكل ما سبق، فإن الكوريين لن يغيّروا صلب معتقداتهم وعاداتهم مهما كان الأمر. إنهم مشهورون الآن برفضهم أيّ شيء يعتقدون أنه نقد لكوريا، حتى لو كان بشكل ودّي.

وعلى الرغم من توافقهم مع النواحي التقنية والموضات الفنية في الثقافات الأخرى، وغالباً اليابانية والأمريكية والأوربية، فإن الكوريين غير قادرين من الناحية الدستورية على التغيير في أعماق وجودهم ووعيهم؛ فالأمريكيون من السهل إثارتهم بالإشارات الكثيرة للأمركة أو التغريب، ومن الشواهد على ذلك ماكدونالد والسيارات والموضة والرحلات الخارجية، لكن من الصعب أن يكون الكوريون مثلهم؛ لذلك فهم سرعان ما يكتشفون متعجبين أنهم في جوهرهم لا يمكن اختراقهم، ومحصّنين ضد التغيير.

- كوريا في صراع مستمر مع نفسها: بسبب حالة الوجود والوعي فإن المجتمع الكوري يظلّ في حالة مستمرة من الصراع بين ضغوط العولمة والعالمية التي تتطلب عقلانية وتغرُّباً من جهة، والكورية غير القابلة للاختراق والتغيير في جوهرها من جهة أخرى. ولا شيء يوضح ذلك بطريقة درامية أكثر من طلاب الجامعات، الذين يصرخون بشعارات ضد أمريكا خلال النهار، ولكنهم يحلمون بالذهاب إلى أمريكا للدراسة والعيش هناك بعد أن تخمد صرخاتهم.

حتى في ذروة المظاهرات ضد أمريكا، فإن استطلاعاً للرأي بين طلاب الجامعات الكورية أظهر أن الأغلبية تفضّل الجنسية الأمريكية على جنسيتهم. وهؤلاء الطلاب فيما بينهم أكثر ضجيجاً وخصومة، وأكثر الناس شجاراً في العالم، ويتفوقون على اليهود الذين اشتهروا في العالم بالخصام (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى).

ومن الناحية الفردية، فالكوريون من أكثر الناس إيثاراً، وأكثر الناس مودةً وكرماً على وجه الأرض. وقليل من القومين الكوريين يستقبلون الأجانب، ويضمونهم إليهم وإلى قلوبهم بسرعة كما يفعل الأفراد الكوريون. وبوصفهم قبيلةً أكثر من كونهم أمةً حديثةً، فإن الكوريين يغيّرون طباعهم بصورة درامية. وهم مجتمعون بصفة القبلية الكورية غير منطقيين وغير معقولين وأجلاف، كما هم لطيفون وكرماء كأفراد. والذي يحيّر الأجانب، خصوصاً الأمريكيين، أسلوبهم الساذج أساساً تجاه العالم أكثر من أيّ شيء آخر، وهو الشخصية المحيّرة للكوريين بصفتهم القبلية والفردية.

وعودةً إلى السؤال الأصلي: هل يمكن أن نفهم الكوريين؟ نعم، من الممكن ذلك إذا قمنا بنسخ النقاط الخمس السابقة، واتخاذها كتابنا المقدس mantra.

توزيع جوائز الدورة السادسة لدبي الثقافية

تمّ في ٢٠ أكتوبر/ تشرين الأول الماضي توزيع جوائز دبي الثقافية للإبداع على الفائزين بها في دورتها السادسة ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩م في فروع (الشعر، والرواية، والقصة القصيرة، والحوار مع الغرب، والفنون التشكيلية)، في حضور كوكبة من الشعراء والمثقفين والإعلاميين العرب.

وشهد حفل توزيع الجائزة عرض فلم وثائقي قصير يتناول الجائزة منذ بدء مسيرتها في عام ١٩٩٩م، إضافةً إلى تكريم المبدعين والفائزين، وتوزيع الدروع والشهادات التقديرية عليهم.

يُذكر أن مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية فازت بشخصية العام الثقافية الإماراتية؛ لدورها الفعال والمؤثر في دعم الثقافة والمبدعين ورعايتهم.

أما الفائز الأول في مجال الشعر، فهو عمر محمود عناز من العراق، وحصل حكمت حسن جمعة من سورية على الجائزة الثانية، وخميس قلم الهنائي من عُمان على الجائزة الثالثة، ونجاح عبدالنور من مصر على الجائزة الرابعة، وحصلت نسيمة بو صلاح من الجزائر على الجائزة الخامسة.

وفازت بالجائزة الأولى في مجال الرواية ياسمين مجدي من مصر. ونال الجائزة الثانية علي عبدالنبي الزيدي من العراق، في حين ذهبت الجائزة الثالثة إلى فتحي الجميل من تونس، وحصل على الجائزة الرابعة الحسن بلكور من المغرب، والجائزة الخامسة سمير عبدالفتاح من اليمن.

وفاز محمود محمد الرحبي من سلطنة عمان بالجائزة الأولى في مجال القصة القصيرة، ونال عبدالقادر حميدة من الجزائر الجائزة الثانية، ومحمد عبدالرحمن الفخراني من مصر الجائزة الثالثة، وهيمى المفتي من سورية الجائزة الرابعة، وسمرقند حمودي من العراق الجائزة الخامسة.

ونال محمد الصادق الكحلاوي من تونس الجائزة الأولى في مجال الحوار مع الغرب، ود. عماد عبداللطيف علي من مصر الجائزة الثانية، وأمحمد جبرون من المغرب الجائزة الثالثة، ود. منير محمد سالم من مصر الجائزة الرابعة، ومصطفى محمد عبدالفتاح من سورية الجائزة الخامسة.



وفاز الفنان اليمني طلال النجار بالمركز الأول في فرع الفنون التشكيلية عن أفضل صورة مرسومة لوجه إنسان (بورتريه)، وفاز ناصر بخيت ناصر من السودان بالمركز الثاني، وسلطان غزال من سورية بالمركز الثالث، وأحمد قاسم من مصر بالمركز الرابع، وخالد النعيمي من العراق بالمركز الخامس.

وضمّت لجنة تحكيم جائزة شخصية العام الثقافية كلاً من: د. صالح هويدي، ود. سمر روحي الفيصل، وعبدالفتاح صبري، وإسلام أبو شكير. وفي فرع الشعر، ضمت لجنة التحكيم كلاً من: أحمد عبدالمعطي حجازي، ود. صالح هويدي، ود. علي بن تميم. وفي الرواية وفرع الحوار مع الغرب شملت لجنة التحكيم كلاً من: د. حاتم الصكر، ود. فاطمة البريكي، ونواف يونس. وتكوّنت لجنة تحكيم القصة القصيرة من: د. سمر روحي الفيصل، وعبدالفتاح صبري، وإسلام أبو شكير. وتكوّنت لجنة تحكيم الفنون التشكيلية من: د. نجاة مكي، ود. عمر عبدالعزيز، وناصر عراق.

وتبلغ قيمة الجوائز ١٥٠ ألف دولار موزّعة على الفائزين الخمسة الأوائل من كل فرع، و٢٥ ألف دولار لجائزة شخصية العام الثقافية الإماراتية.

فلم وثائقي عن الأمريكية راشيل

قدّمت المخرجة المرنسية الإسرائيلية سيمون بيتون في فيلمها الوثائقي (راشيل) نتائج تحقيقات قامت بها على مدار ثلاث سنوات بشأن ظروف وفاة الأمريكية راشيل كوري في أثناء مواجهتها جرافة إسرائيلية كانت تحاول هدم منزل مواطن فلسطيني في غزة عام ٢٠٠٣م.

ويقدم الفلم شهادات حية لأصدقاء راشيل من المتضامنين الأجانب الذين رافقوها في رفح، والفلسطينيين الذين استضافوها في بيوتهم، إضافةً إلى شهادات عدد من الجنود والضباط في الجيش الإسرائيلي.

وأشارت بيتون في مهرجان (القصبة السينمائي الدولي) في رام الله إلى أن إعداد الفلم استغرق ثلاث سنوات، وقد أصرّت على إنجازه على الرغم من عدم السماح لها بدخول غزة، وعدم تمكينها من لقاء الجنديين اللذين كانا يقودان الجرافة.

كما ركّز الفلم في الرسائل التي كانت تكتبها راشيل إلى والديها، وتعدّ مذكرات شخصية وصفت فيها تضامنها مع الفلسطينيين بأنه «أفضل عمل قامت به في حياتها».

وقدّم الفلم شهادةً لجندي إسرائيلي ذكر أنهم كانوا يطلقون النار على النوافذ والواجهات للتسلية، وكذلك على خزانات المياه للاستماع إلى صوت الماء المتدفق منها. وأوضح الفلم من خلال صور التقطها زملاء راشيل أن مقتلها كان متعمَّداً.

وقد عُرض الفلم في الولايات المتحدة الأمريكية، وتعرّض لهجوم كبير من مؤيّدي إسرائيل، وسيُعرض في دور العرض في فرنسا وبلجيكا، إضافةً إلى بثّه عبر عدد من محطات التلفاز.





راشيل

الألمانية هرتا مولر تفوز بجائزة نوبل في الآداب

نالت الكاتبة الألمانية المولودة في رومانيا هرتا مولر (٥٦ عاماً) جائزة نوبل في الآداب لعام ٢٠٠٩م بعد منافسة قوية مع الأديبة الأمريكية جوسي كارول أوتيس، والجزائرية آسيا جبار، والشاعر السوري أدونيس، وعدد من الأسماء المرموقة في الأدب العالمي.

وُلدت مولر في السابع عشر من أغسطس عام ١٩٥٣م في رومانيا، وكانا والداها من الأقلية المتحدثة بالألمانية في رومانيا، وقد خدم والدها في كتائب الحماية المسلحة خلال الحرب العالمية الثانية. وخلال عام ١٩٤٥م تم ترحيل كثير من الألمان الرومانيين إلى الاتحاد السوفييتي، وكانت والدة مولر ضمن الأشخاص الذين تمّ ترحيلهم، فقضت خمس سنوات تعمل في إحدى المعسكرات بأوكرانيا. ودرست مولر الأدب الروماني والألماني خلال المدة من عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٧٦م، وشاركت في رابطة للأدباء الشباب المتحدثين بالألمانية. وبعد أن أنهت دراستها عملت مترجمةً في مصنع للآلات، إلا أنها فُصلت منه بعد رفضها التعاون مع البوليس السرّي. وبعد فصلها تعرّضت لبعض المضايقات الأمنية، ثم عملت مُدرِّسةً لرياض الأطفال، إضافةً إلى إعطائها دروساً في اللغة الألمانية.

قدّمت مولر مجموعة قصصية قصيرة عام ١٩٨٢م خضعت للرقابة في رومانيا، وبعدها بعامين نشرت النسخة الألمانية منها، التي لم تكن تخضع للرقابة. ثم قدّمت مولر عملاً آخر باللغة الرومانية، قدّمت فيه صورةً لقرية صغيرة للمتحدثين بالألمانية، وما بها من مظاهر للفساد والتعصّب والقمع. وقد لاقى هذا العمل نقداً شديداً من الصحافة القومية الرومانية، بينما كانت النظرة إلى هذه الأعمال إيجابية في خارج رومانيا، واحتفت بها الصحافة الألمانية.

هاجرت مولر مع زوجها الروائي ريشارد فاجنر في عام ١٩٨٧م إلى ألمانيا، وخلال الأعوام التالية ألقت مولر المحاضرات في الجامعات الألمانية وخارجها، وهي تعيش حالياً في برلين. وهي عضو الأكاديمية الألمانية للكتابة والشعر منذ عام ١٩٩٥م، إضافةً إلى عدد من المناصب الأخرى. وفي عام ١٩٩٧م، انسحبت مولر من مركز القلم الألماني؛ احتجاجاً على الاندماج مع فرع الجمهورية الديمقراطية الألمانية سابقاً. وفي يوليو عام ٢٠٠٨م بعثت مولر رسالة احتجاج مفتوحة إلى رئيس المركز الثقافي الروماني هوريا رومان باتابيفيتش؛ للدعم الذي أعطاه عن طريق المؤسسة المدارس الرومانية الألمانية الصيفية التي تضم اثنين من المخبرين السابقين للجهات الأمنية.

شبكة الجزيرة الفضائية تكرّم المسيري بكتاب

نظّمت شبكة الجزيرة الفضائية مساء الخميس ١٩ شوال الماضي (٨ أكتوبر/ تشرين الأول عام ٢٠٠٩م) حفل تكريم للمفكّر المصري الراحل الدكتور عبدالوهاب المسيري بمناسبة إصدار كتاب يتضمّن المقالات التي نشرها له موقع الجزيرة نت على مدار السنوات التسع الماضية.

افتتح الحفل المدير العام لشبكة الجزيرة وضاح خنفر، وشهدته شخصيات فكرية وسياسية، منها: الدكتورة هدى حجازي أرملة المسيري، والمفكران العربيان الدكتور عزمي بشارة، والسيد منير شفيق، إضافةً إلى جورج إسحاق؛ منسِّق حركة (كفاية) المصرية.

وتضمنت فقرات الحفل، الذي أقيم في قاعة السفير بالنادي الدبلوماسي بالعاصمة القطرية الدوحة، عرض شريط مصوَّر عن حياة المسيري، إضافةً إلى كلمات للمدير العام للشبكة، وأرملة المسيري، وتلميذه الدكتور محمد هشام. وتمّ خلال الحفل توزيع

من أعمال مولر بالإنجليزية: (جواز سفر)، و(أرض من الخوخ الأخضر)، و(السفر على ساق واحدة)، و(التعيين).



الكتاب الذي أصدرته الجزيرة نت تكريماً لذكرى الراحل، ويتضمن مقالات نشرها في الموقع، أو كتبها له، لكنها لم تُنشر إلا بعد وفاته. ويدور المحور العام للمقالات حول الحداثة والإنسان. ويُذكر أن المسيري توفي في شهر يوليو/ تموز من العام الماضي بعد صراع مرير مع مرض عضال. وكانت مجلة (الفيصل) قد أجرت معه حواراً مطولاً نُشر في العدد رقم ٣٨٢ خلال حضوره الرياض ومشاركته بمحاضرة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

حكاية الموت والحياة

محمد بن يوسف كرزون

حلب - سورية

أراكَ لم تكترث لهذا الحدث الجلل، وكأن الموت قد صار عندك محطة عادية، بل عادية جداً.

اليوم ارتديتَ ثيابك الأنيقة.. لم تنسَ أن تضع عطرك المفضّل.. خرجتَ من البيت بهدوء ورتابة.. استقللتَ سيارتك.. أدرتَ مفتاح التشغيل بكل بساطة.. انطلقتَ.. وضعتَ سيارتك على بُعد مقبول من منزل المتوفَّى.. مشيتَ باتزان عادي.. صافحتَ أولاد الراحل.. نثرتَ عليهم عبارات وكلمات غايةً في العادية.. وبعدها مررتَ من أمام باقة الزهور التي عليها اسمك.. قرأتَ عبارتك فشعرتَ بغبطة وسرور.. بعدها جلستَ على كرسيّ قرب الذي يتلو القرآن وأمامه مكبّر الصوت.. وبين هنيهة وأخرى كنتَ تنحني وتردّ بيدك التحية على من يعرفك ومن لا يعرفك.. ثم تضع يدك على صدرك تعبيراً عن امتنانك.. امتنان من ماذا؟ هكذا ألفوا.. وهكذا تفعل... لعل صورتك تنطبع في أذهان أكبر عدد من الناس.

تتوقف قراءة القرآن.. تنهض عن كرسيّك.. تتوجّه إلى أولاد الراحل ثانيةً.. تودعهم.. وكأنك تقول لهم: هل رأيتموني جيداً؟ لقد قمتُ بالواجب على أكمل وجه.. الفقيد عزيز عليّ.. وأنتم أبناء العزيز.

لم تنسَ أن تعرض عليهم خدماتك وكرمك وأريحيتك.. ولكن ماذا لو طلبوا منك أيّ طلب؟ أنت واثق بأن الطريقة الناعمة التي تعرض فيها سخاءك عليهم لا تمكنهم من أن يطلبوا شيئاً.. إنها عبارة مجاملة تقليدية فحسب. ثم إنك تعرف أنهم ليسوا بحاجة إليك.. ولاسيما الحاجة المادية.

لم تسأل نفسك منذ أكثر من عشرين سنة: ما الموت؟.. ما معنى أن يموت شخص ما؟.. ثم ما معنى أن يموت عزيز؟.

أنت تخاف فقط من موت من تجمعك به مصلحة.. لذلك أراك تسارع إلى توثيق دقيق في المحاكم لكل علاقة مادية ترتبط بها مع الآخرين.. ولاسيما المسنون منهم..

هل تذكر؟.. لا أظنك تذكر كما ينبغي.. هل تذكر يوم كنتَ في الحادية عشرة من عمرك.. عندما مات صديق لك في الصف.. كيف كانت حالك؟ وماذا فعلت؟.

كانت حالك ذهولاً.. ذهولاً حقيقياً.. ولم يكن لك من ملجأ إلا أمك:

- ما الموت يا أماه؟ أجيبيني أرجوك.. هل معناه أنني لم أعد أرى (ماجد)؟.. وذكرياتي معه.. وأحلامنا المشتركة.. ماذا أفعل بها؟ هل أتركها لي وحدي؟ أماه.. ساعديني أرجوك.. من سيشاركني الطريق في رحلتي اليومية إلى المدرسة؟!.

يومها لم تردّ أمك بأيّ كلمة.. كانت دموعها كافيةً.. لم تكن متأكداً أهي تبكي حزناً على صديقك الذي رحل أم حزناً على آلامك التي تعانيها؟.. وكانت يداها الحانيتان تضمانك إلى قربها.. ثم تغمرك بدفئها الذي جعلك تغفو ثم تنام أكثر من ساعة.. من دون أن تتحرك أمك حركة تزعجك.. وعندما تصحو تقبّلك وتقول لك:

– قدّر الله وما شاء فعل.. الموت حق يا ولدي.. الموت قاسٍ.. ولكنه قدر على أيّ حال.. وعلينا أن نتقبل الأقدار بنفس رضية.. ادعُ لصديقك بالرحمة.

تقبّلتَ كلام أمك.. ولكن بقيت في نفسك مشاعر غامضة حزينة.. كئيبة.. مريرة.. مملوءة بالأسئلة من غير إجابات.. يومها كنت تزور المقبرة المجاورة لحيّك مرةً كل يوم على الأقل.. تحكي لماجد ما جرى معكم في الصف.. تضحك لعله يضحك معك.. تغضب لعله يغضب لأجلك.. تعدّ له من ذكره في الصف من الطلاب والأساتذة.. تبالغ في ذلك.. لعل ذلك يريحه في قبره.. وتختم جلستك بدموع غزيرة.. تمسحها.. وتحمل حقيبتك المدرسية.. وتسير عائداً إلى البيت.. ثم تأتي إلى جوار أمك.. تغمس نفسك في حضنها.. تقبّلها.. ويومها أيضاً لم تكن تتحدث معك عن موضوع الموت سوى أن تسألك: كم سورة من القرآن قرأتَ اليوم على روح ماجد؟.. وكنت تجيبها بحركة من يدك تعبيراً عن عدد ثلاث أو خمس أو أكثر.. وأنت تغالب الدموع بصمت عسير.

وتتابعت الأيام.. وصار ماجد ذكرى.. ذكرى جميلة.. على رغم نهايتها الحزينة.. وربما تذكّرت كل شيء في تفاصيل علاقتكما إلا موته الذي كنت تتناساه.. والعجيب أنك الآن عندما تذكرها تبدو لك كأنها قد حدثت بالأمس القريب.. تذكر كل تفاصيلها بدقة نادرة.

ما الذي حصل لك؟ هل صار الموت عندك شيئاً عادياً؟ هل أنت خارج دائرة الموت؟ أستغفر الله.. أو هل أضحت طقوس الدفن وما يتبعها من لقاءات طقوساً رتيبة مألوفة لا علاقة للفقيد بها سوى الاسم والحدث، وكل العلاقة بعدها للناس الذين وفدوا للتعزية؟ هي في رأيك طقوس رتيبة حقاً؛ لأن العبارات التي تتردد في هذه المناسبات نفسها مكرّرة.. يكرّرها أغلب الحاضرين.. والصامت الذي لا يردّدها يكون قد ملّها، أو ربما يشعر بحرقة الحزن على الفقيد من دون أن يستطيع التعبير عنها؛ إذ يرى هذه العبارات قليلةً على الحدث الذي أمامه.

وما دامت الطقوس رتيبة مألوفة فأنت وكثيرون مثلك لا تريدون الخروج على المألوف، بل هو فسحة لعرض الذات، وتلميع الأنا، والهروب من الخوف.. الخوف من الموت.

هل تستطيع أن تنكر خوفك من الموت؟ أراني لا أحتاج إلى تذكيرك بمرضك منذ عدة سنوات.. لقد كشف الطبيب أمرك عندما قال لك: أنت تزيد الأمر تعقيداً بخوفك من الموت.. فكّر في الشفاء يا رجل.. وأبعد عنك الخوف من الموت.. فلن تشفى إلا بذلك.

لا تتناسَ حكاية الموت والحياة.. وتجعل مشروعاتك تطغى عليهما.. وهل الموت يُنسى؟! إنه كالحياة.. لا يُنسيان.. فإني أخاف عليك من أن تقتلك تلك المشروعات بهموم لا قبل لك بها عندما تصبح عبداً أسيراً لديها.

أنت والحياة والموت كائن واحد.. لا يمكن فصل بعضكم عن بعض.

ترى كم من الرجال سيحضر مجلس عزائك بعد موتك بعطوراتهم الفاغمة، وأناقاتهم المبهرجة، وسيارتهم الفاخرة، وباقات الزهور التي ستصطفّ وعليها عبارات التعزية؟!! إنهم جميعاً يشبهونك تماماً فيما فعلت اليوم!!.

ترى كم شخص سيذكرك بعد موتك مثل ذكرك (ماجد)؟! ويقول عند ذكرك: يرحمه الله؟! عفواً، نسيت أنك قد نسيت الموت.



سرّ بين اثنين

كينتين رينولدز

ترجمة: كامل السعدون

أوسلو - النرويج

قصة



كان الجواد الذي يستخدمه بيير لجرّ عربة الحليب خلال الخمس عشرة سنة الماضية جواداً كبيراً يُدعى جوزيف. حين أُلحق بالعمل أول مرة في معمل منتجات الألبان في منطقة مونتريال لم يكن يملك اسماً. لحظة التعارف مع بيير غرس هذا أصابعه الطويلة الخشنة في شعر الرقبة، وبدأ يمشط ويمسد على عنقه، وينظر في عينيه بودّ: «هذا جواد لطيف مهذب ومخلص.. سأدعوه جوزيف على اسم القديس جوزيف». منذئذٍ انعقدت أواصر صداقة دامت كل هذه السنين بين الشغيلين الكادحين. خلال سنة واحدة من العمل مع بيير في مشوار توزيع الحليب، عرف جوزيف المشوار بكل تفاصيله: اتجاه الطريق، نقاط التوقف لوضع زجاجات الحليب أمام بيوت الزبائن. عرف كل التفاصيل بغاية الدقة، وهذا ما جعل بيير يؤكد دوماً بكل فخر أنه لم يستعمل السوط مطلقاً مع جوزيف. كلّ صباح باكر، سواء من صباحات الصيف الدافئة الصافية الجميلة، أو الشتائية الباردة المعتمة الكئيبة، كان بيير يصل إلى الإسطبلات في تمام الخامسة، يتوجّه إلى عربته التي سلف تحميلها من قبل الكادر الليلي المناوب. حالما يأخذ مكانه في مقعد القيادة، ومن دون

مسابقة العدد

أسماء الفائزين

العدد المزدوج ٣٩٥ - ٣٩٦

الجماديان ١٤٣٠ هـ

الفائز الأول:	فراس رائد هرساني - مكة المكرمة - السعودية
الفائز الثاني:	الهادي بن الطاهر بن إبراهيم - المنزه - تونس
الفائز الثالث:	سعاد حسن أحمد سعد - صنعاء - اليمن
الفائز الرابع:	أحمد أنور أحمد - الجيزة - مصر
الفائز الخامس:	محمد نبيل عبيد - أبوظبي - الإمارات
الفائز السادس:	عبد الرحمن عبّا - الدروة - المغرب
الفائز السابع:	ياسر حسين الشوا - دير الزور - سورية
الفائز الثامن:	أسمهان أحمد رشيد - إربد - الأردن

حل المسابقة

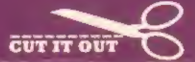
العدد المزدوج ٣٩٥ - ٣٩٦

الجماديان ١٤٣٠هـ

١- الدب الكسلان: هو حيوان ضخم أشعث الوبر، له عرف من الفراء حول رقبته وأكتافه، ويسمى أيضاً (دب العسل).

٢- أول من أجرى عملية قلب مفتوح هو الجرّاح الجنوب إفريقي كريستيان برنارد.

٣-أصغر محيطات العالم هو المحيط القطبي الشمالي.



أسئلة مسابقة

العدد المزدوج ٤٠١-٤٠٢ ذو العقدة -ذو الحجة ١٤٣٠هـ

(١) من القائل:

كلُّ ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوماً على آلة حدباء محمولُ

....

(٢) ماذا يقصد النبّي - صلى الله عليه وسلم - بالأيام العشر في قوله «ما من أيّام العمل الصالح فيهنَّ أحبُّ إلى الله من هذه الأيام العشر»؟

....

(٣) ما معنى قول العرب: «رماه بثالثة الأثافي»؟

الاسم: .... المدينة: .... ص.ب: .... هاتف: ....

العنوان: .... الدولة: .... الرمز البريدي: .... ناسوخ: ....

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد ......)

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة ثالثة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

نأمل من الإخوة الذين يشاركون في المسابقة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني؛ لأن المصارف (البنوك) تصدر الشيكات الخارجية باللغة الإنجليزية.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات الإخوة القراء المتابعين للمسابقة تمت زيادة قيمة الجوائز، بعد أن سبق مضاعفتها من قبل.

فقد تم رفع قيمة الجائزة الأولى من ١٠٠٠ ريال إلى ١٥٠٠ريال، والجائزة الثانية من ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ ريال، والجائزة الثالثة من ٥٠٠ إلى ٧٠٠ ريال، والجائزة الرابعة من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ريال، والجائزة الخامسة من ٢٥٠ ريالاً إلى ٣٥٠ ريالاً، والجائزة السادسة من ١٥٠ ريالاً إلى ٢٥٠ ريالاً. وتظل الجائزتان السابعة والثامنة على ما كانتا عليه.

ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.

والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دومًا، مع تمنياتنا حظًا وافرًا لجميع القراء الأعزاء.

تنويه

نفيد الإخوة المتسابقين أن المجلة ستراعي ما حدث من تأخر في مواعيد صدور الأعداد الأخيرة لظروف فنية خارجة عن الإرادة، ولهذا فقد تم مدّ فترة تلقي المشاركات في المسابقات شهرين بدلاً من ٤٥ يومًا.



قسيمة اشتراك أفراد (مخفضة)

الاسم: ....

العنوان: ....

المدينة: ....

الدولة: ....

ص.ب:: .... الرمز البريدي: .... هاتف: .... ناسوخ: ....

- قيمة الاشتراك السنوي لـ (١٢ عددًا) ١٠٠ ريال سعودي أو ما يعادلها بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.
- ترسل قيمة الاشتراك بشيك مصدق لأمر مجلة الفيصل الثقافية، أو يتم توريدها في حسابنا رقم (٠٠١ - ٠٥٥٥٠٥٠ - ٠٠٤) في البنك السعودي البريطاني، شارع العليا العام - الرياض.
- يشترط إرفاق القسيمة مع طلب الاشتراك.

ص.ب (٣) - الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية - هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

أن ينبس بكلمة. يبدأ الجواد بالتحرّك. تتدحرج العربة بلطف نزولاً عبر شارع القديسة كاترين، ثم يميناً على طول الشارع الذي تمتدّ على جانبيه الأشجار السامقة، ثم تنعطف يساراً، حيث شارع الأمير إدوارد. يتوقف الجواد عند أول بيت مانحاً صاحبه فسحة زمنية لا تتجاوز الثلاثين ثانيةً لوضع زجاجة الحليب عند العتبة، ثم يستمر في المسير من جديد. يتجاوز بيتين، ثم يقف عند الثالث، ثم تتدحرج العربة بلطف على طول الشارع، وهكذا حتى يتم توزيع كامل حمولة العربة، والعودة إلى مقر العمل. كان بيير يؤكد دائماً: «إنني لم ألمس السوط منذ التحق بي هذا الجواد الطيب؛ إنه يعرف بدقة أين يقف. إن أيّ أعمى يستطيع أداء العمل في مشواري هذا من اليوم الأول بفضل جوزيف». ومرّت السنون تليها السنون، وبدأت علائم الشيخوخة تظهر على الاثنين معاً. لحية بيير الكثة الطويلة غدت بيضاء بالكامل، أما جوزيف فلم يعد قادراً على أن يرفع قائمتيه عن الأرض إلا بصعوبة. أما رأسه فكان متهالكاً لا يكاد يعامد الأفق.

ذات صباح ضبابي بارد من صباحات أكتوبر، جاء مدير المعمل في زيارة إلى موقع العمل لمراقبة مجريات التسليم الصباحي، يرافقه مارتن توفيير مسؤول الإسطبلات. وبينما هما يتجولان أشار مارتن إلى بيير: انظر كيف يتحدث إلى الحصان. انظر كيف يصغي هذا الآخر إليه، كيف يتوجّه برأسه إليه. لاحظ تلك النظرة في عين الجواد، أعتقد أن هذين الاثنين يشتركان في سرّ ما، لقد لاحظت ذلك دائماً. إنه كما لو أنهما يضحكان علينا أحياناً حينما يخرجان معاً في مشوارهما اليومي. على أي حال، بيير رجل طيب، ولكنه غدا عجوزاً، ربما من القسوة أن أقترح أن يتقاعد ويُمنح مرتباً تقاعدياً بسيطاً!!.

- بلا شك، «علّق المدير ضاحكاً». إني مطّلع على أرشيفه، لقد اشتغل الرجل لدينا قرابة الثلاثين عاماً، ولم تأتِ أيّ شكوى عليه من الزبائن. أخبره أنه من المستحسن له أن يستريح، وسينال الراتب الذي يتقاضاه الآن نفسه. ولكن بيير رفض بقوة، لقد أرعبته فكرة ألاّ يخرج مع جوزيف كل صباح كما اعتادا منذ خمسة عشر عاماً. كلانا رجلان عجوزان «هتف بأسى لمارتن»، دعونا نستهلك معاً، وعندما يتقاعد جوزيف سأتقاعد أنا أيضاً.

تفهم مارتن الموقف بتعاطف، فلم يعلّق. ذات صباح كان مارتن يحمل أخباراً محزنة لبيير. حين وصل إلى المعمل كان الصباح كئيباً معتماً، الهواء ثلجي، والثلج الذي هطل ليلاً استحال إلى ملايين حبات اللؤلؤ اللامعة.

- حصانك لم يستيقظ هذا الصباح. إنه عجوز جداً بيير. إن عمره خمسة وعشرون عاماً، وهذا يعادل خمسة وسبعين عاماً لدى البشر.
- نعم، «همس بيير بأسى» إن عمري خمسة وسبعون.

ربت مارتن على كتفه بإشفاق.

- سنجد لك حصاناً آخر، وسيكون جيداً مثل جوزيف. ستعلّمه خلال شهر واحد أن يتقن الطريق وتفاصيل العمل تماماً مثل جوزيف، و...

منذ سنين وبيير يرتدي قبعة ذات حافة عريضة ينزلها إلى ما فوق عينيه، كانت النظرة في عين بيير قد أدهشت مارتن، واستوقفته ملياً. لقد لفتت نظره تلك النظرة التي لا حياة فيها. كانت عيناه تعكسان الحزن الذي يمتلئ به قلب بيير وروحه، لقد بدا وكأن قلبه وروحه قد ماتا للتوّ.

- قال مارتن لبيير: خذ اليوم استراحةً يا صديقي.

لكن بيير كان قد انسحب أصلاً قبل أن يكمل مارتن كلامه، توجّه في طريق العودة المعتاد والدموع تجري على خديه. في اللحظة ذاتها كانت هناك شاحنة مسرعة آتية من الجهة الأخرى، تعالى صراخ السائق منبّهاً مع ضجيج صوت البوق، لكن بيير لم يسمع شيئاً، ضغط السائق على الدواسة بمنتهى القوة.

- قال سائق سيارة الإسعاف التي قدمت بعد خمس دقائق من الحادث: إنه ميت.
- قال سائق الشاحنة: لم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً. وأضاف:
- لقد كان يسير باتجاه شاحنتي. وبدا كأنه لم يرها. كان يتقدم نحو الموت كأنه أعمى.. انحنى طبيب الإسعاف نحو الجثة.
- أعمى؟.. طبعاً الرجل أعمى، أما ترى تلك العتمة في عدسات العينين؟ هذا الرجل أعمى منذ عدة سنين. والتفت نحو مارتن: أنت تقول إنه كان يعمل لديك، ألم تكن تعرف أنه أعمى؟
- كلا، كلا.. لا أحد منا كان يعرف.. واحد فقط.. صديق له اسمه جوزيف، لقد كان سراً بينهما، بينهما فقط.

ثقافة

الوهن الثقافي

في الأمة ودوره في انحطاطها الحضاري

التجديد في ميدان الثقافة هو التجديد في الحياة الإنسانية كلها. أليست السياسة هي ثقافة الحكم؟ وهل الصناعة والزراعة وغيرهما من مناشط العمل البشري إلا ثقافة تعبّر عن الاتجاهات والقيم السائدة في مجتمع معيّن

حفيظ الرحمن الأعظمي

باكستان - إسلام آباد



التجديد الثقافي.. لماذا؟

نسعى إلى التجديد؛ لأنه سنة الحياة، وقانون الطبيعة، ولا يمكن دوام البقاء على التقليد؛ فمن الواجب القيام بالتجديد والإبداع في هذا الجديد؛ لتطوير الواقع وتغييره بمعايير وشرائط متوافرة، وطرائق مختلفة.

وقد يكون من الأمور المطلوبة في اللحظة الراهنة إعادة النظر إلى الثقافة، لا على أساس أنها مجالات النشاط الإنساني، أو ميدان لصياغة منظومة المعرفة التي تتطلبها أسس التعامل مع قضايا الكون والإنسان والحياة، بل نسعى إلى إعادة التوجُّه صوب النظر إلى الثقافة بوصفها دعوة مستمرة إلى المعرفة والفهم والوعي بما يعود على جميع مجالات الحياة الإنسانية بالتنوير والتطوير والإبداع. إنها تلك القدرة الخلاقة، والطاقة المذخورة التي تمكّن المرء من تحويل طاقاته وإمكاناته إلى إنجازات وأفعال تصدر من المنابع والمصادر الأصلية لأيّ مجتمع من المجتمعات. ومن هنا نرى الاختلاف والتباين بين ثقافات الشعوب والأمم، وهذا يعود أساساً إلى خصوصية هذه المجتمعات في مرجعياتها، ومصادر المعرفة عندها؛ من عقائد، وأخلاق، وفنون، وآداب، وعادات، وأعراف.

لذلك، فإن التجديد في ميدان الثقافة هو التجديد في الحياة الإنسانية كلها. أليست السياسة هي ثقافة الحكم؟ وهل الصناعة والزراعة وغيرهما من مناشط العمل البشري إلا ثقافة تعبّر عن الاتجاهات والقيم السائدة في مجتمع معيّن يعكس فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة، وتشكّل نسقاً متكاملاً ورباطاً عضوياً بين الإنسان والإطار الذي يحويه والنظام الذي يحكمه ضمن مجتمعه.

ولما كان التخلف والتقهقر في حياة الأمم هو تخلّفاً بالدرجة الأولى في طرائق تفكيرها، وأساليب تعاملها مع المذخور من ثقافتها، وتنمية عوامل البناء في معمارها الفكري؛ فإن التجديد في الميدان الثقافي هو الذي يجدّد عافيتها في جوانب الاقتصاد المادي، الذي يحقق - بلا شك - رفاهية الإنسان، ويحفظ كرامته؛ إذ لا قيمة للرفاهية المادية مع فقدان الثقافة التي تحفظ الكرامة، وتطوّر الكفاءة، وتنمي الذوق، وتطلق القدرة على الإبداع. ولن يتم ذلك إلا في إطار التجديد الثقافي، الذي هو في حقيقته اكتشاف لموارد المجتمع، وطاقاته المذخورة، وحسن توظيفها، وتسخيرها، وادّخارها في صور إستراتيجية، ورؤية علمية للماضي والحاضر والمستقبل على حدّ سواء، وهو ما يحقق بدوره القيام بوظيفة الاستخلاف الإنساني، والعمران البشري.

ويمكن القول: إن التخلف في المجال الاقتصادي المادي لا يمكن أن يوجد في مجتمع بمفرده متعايشاً مع تقدم المجال الثقافي، وإنما يأتي التخلف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي نتيجةً للتخلف الثقافي. ومن أبرز سمات هذا التخلف الثقافي: عدم القدرة على تشخيص علل الحضارة وأدوائها التي أصابت الجسم الصحيح، وحوّلته إلى هيكل بالٍ من العظم والعصب،

تنخره الجراثيم الوافدة، فتحوّل عافيته إلى هُزال بادٍ، وسقوط ليس له قرار. وكما قال المفكّر الكبير مالك بن نبي - رحمه الله - فإن المشكلة عند كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحلّ مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها. وما الحضارات المعاصرة، والحضارات الضاربة في ظلام الماضي، والحضارات المستقبلية، إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن[1].

والحضارة في جوهرها ثقافة تنبت وتنمو وتزدهر، ثم تذبل وتضعف، ولكنها لا تموت وتفنى، بل هي دائمة الحاجة إلى من يرعى النبت الذابل فيحيا، ويشتد عوده، ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه. ولن يكون عطاء الثقافة فعالاً ومستديماً ما لم نوثق الصلة الضرورية بين الفرد وعالم الأفكار وعالم القيم الذي يضبط هذه الأفكار بمعايير قيم الوحي الأعلى وهدي الصراط المستقيم.

الإسلام دين ثابت في أصوله وأركانه



ويؤكد (علم اجتماع المعرفة) أهمية (التراكم) بوصفه عملية ضرورية لنمو الثقافة: إذ إن كل ثقافة تمثّل في حقبة ما مجموع العناصر المادية والمعنوية التي تجمّعت لدى الأجيال الراهنة

ومع الزمن تضيف هذه الأجيال خبراتها وعطاءاتها وإبداعاتها الجديدة. فتطوير المجتمعات الإنسانية بالثقافة وشؤونها وآفاقها ليست مسألة ترفيه أو كمالية، وإنما هو من صميم الوجود الإنساني؛ لأنه هو الذي يغرس القيم والمبادئ التي تنظم علاقة الناس وأدوارهم، وتجعل لحركتهم هدفاً ومقصداً، وتبعدهم من كل أشكال العبثية والفوضوية، وتدفعهم باتجاه الأمور العظيمة[٢].

الوهن الثقافي في عصورنا المتأخرة

مما لا شك فيه أن (الإسلام الدين) واحد ثابت في أصوله وأركانه، وفي عقيدته وشريعته. إنه واحد وثابت لأنه «وضع إلهي»، وليس ثمرةً للفكر البشري الخاضع لتطور الاجتماع، وتبدّل الملابسات، وتغيّر الظروف والحضارات. ثم هو قد اكتملت له أصوله وأركانه منذ أن أوحى شارعه إلى رسوله - عليه الصلاة والسلام - آية قرآنه الكريم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ المائدة: ٣.

وهذا التوجّه، وهذا الثبات في الإسلام الدين، غير قائمين، ولا مطردين في الفكر الإسلامي، الذي يشمل كل التطبيقات الدنيوية لكليات الدين، وقواعده المرنة، وقوانينه العامة التي جعلها أطراً تحكم الإبداع الإنساني في أمور الدنيا، وقضايا الحياة الدائمة التطور بحكم سنن الله، وبضرورات إعمار الكون الذي أبدعه الله، واستخلف الإنسان كي يبدع فيه. وهذا التمايز بين الدين الإسلامي وفكر المسلمين وتصوراتهم في التطبيقات الدنيوية يحتاج دائماً إلى التجديد الذي يعود بالفكر الإسلامي إلى المنابع الأصلية والأصيلة للإسلام؛ حتى لا يؤدي تراكم الشوائب والزوائد والبدع والخرافات إلى رقة الخيوط التي تربط فكرنا الإسلامي بمنبعه الديني الأصيل، فتهدد هذه الخيوط مخاطر الانقطاع[٣].

والحقيقة أن هذا التجديد يهدف إلى إعادة صياغة العلاقة بين العقيدة التي هي أصل ثابت ومقتضياتها التي هي القيمة

مضت قرون على أمة الإسلام وأغلبها يرى أن الطاعة والمعصية، والغنى والفقر، حظوظ مقسومة، وأنصبة مكتوبة

ركز الغزو الصليبي في العصر الحديث بصفة خاصة في الجانب الثقافي؛ لأن الجانب العسكري لم يعد الميدان الوحيد لاحتواء العالم الإسلامي

الحضارية الجوهرية للدين عند المسلمين. هذا التواصل والتوافق يجعلان المجتمع المسلم هو المجتمع المتحضّر مهما يكن نصيبه ضئيلاً من العمارة المادية للأرض، ويجعلان العقيدة جوهر الحضارة بما يشعّ منها ويرتبط بها من قيم وأخلاق.

وقد حاولت حركات تجديدية كثيرة في تاريخنا الحديث ربط ما انقطع من هذا التواصل، وتصحيح ما انطمس من معالم الحق. وركّز الغزو الصليبي في العصر الحديث بصفة خاصة في الجانب الثقافي؛ لأن الجانب العسكري لم يعد الميدان الوحيد لاحتواء العالم الإسلامي، ولم يكن في وسع الحملات الصليبية الجديدة أن تكرّر مسيرتها الأولى إلى بيت المقدس من طريق الشرق؛ لأن الدولة العثمانية الفتية لم تكن واقفةً لهم بالمرصاد فحسب، بل كانت بكل حيويتها العارمة تتوغل في شرق أوربا بقوة كاسحة لا يقف أمامها شيء. «والحق أن العسكرية التركية كانت وراءها عاطفة دينية هائلة دوّخت أوربا وروّعتها، ومكّنت رجلاً كالسلطان سليمان القانوني أن يقود ستة عشر زحفاً داخل العالم النصراني حتى وصل إلى (فيينا) عاصمة النمسا. لقد نسي الأوربيون العرب وفتوحهم الأولى، ورأوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام خصم آخر شديد المراس، قويّ الشكيمة، حتى أصبحت كلمة (تركي) يُخوَّف بها الأطفال كما يُخوَّفون بالعفاريت والأوهام. ويجزم المؤرِّخون المنصفون بأن ظهور الخلافة التركية هو الذي جمّد الزحف الصليبي، وحمى فلسطين والشرق الأوسط من حملات أخرى لمحو العروبة والإسلام»[٤].

ولقد أحسّت الأمة الإسلامية باليتم الروحي والسياسي بعد انتهاء هذه الخلافة الصورية، وانقطع الخيط الذي انتظم عشرات الشعوب، وأحسّ المسلم على شاطئ الهند أو الأطلسي، أو في وادي النيل، أو في شمال إفريقية، أنه غريب متوحّش، يتلمّس ولاءً جديداً يربطه بأيّ شيء إلا بالإسلام.

ولا يجب أن نخجل من إحصاء أسباب انهيار ثقافتنا إذا كنا نريد البُرء من الداء العضال. ويمكن القول - إجمالاً - إن سبب ذلك يعود إلى:

١- التصوير الجزئي للإسلام: فمنذ أن بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل، وأصول وفروع، وأعمال جسمية. والذي حدث عند بعض الناس أن جزءاً ما من الإسلام يمتدّ على حساب بقية الأجزاء، كما تمتد الأورام السرطانية الخبيثة على حساب بقية الخلايا، فيهلك الجسم كله.

وهذا التورُّم الذي يصيب جانباً دينياً معيناً هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب، وليست لهم قلوب العابدين، ومتصوّفين لهم مشاعر ملتاعة، وليست لهم عقول الفقهاء. وهو السر وراء محدثين يحفظون النصوص ولا يضعونها مواضعها، ولا يجيدون الاستنباط منها[٥].

والثقافة الإسلامية حملت معها - للأسف - مخلّفات القرون الماضية، بما فيها من قوة وضعف، واستقامة وعوج، وأخلاطاً لا حصر لها من أفكار ومذاهب تفتقر إلى التمحيص، وتفرض علينا ميز الخبيث من الطيب. ويمكن أن نورد في هذا المقام جملةً من الملاحظات حول هذه الثقافة الموروثة؛ لأنها وراء المد والجزر اللذين تعرّضت لهما الأمة في عصورها المتأخرة:

أ- «إن الثقافة الإسلامية حين اتجهت إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافةً أثريةً لا يتّجه العمل الفكري فيها إلى أمام، بل ينتكس إلى وراء. وكان هذا الاتجاه الناكص المسرف سبباً في انطباع التعليم كله بطابع دارس لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل. وبذلك أصيبت الأفكار بظاهرة التشبُّث بالماضي، كأنما قد أصبحت متنفَّساً له»[٦].

ب- انفصال القيادة الفكرية عن القيادة السياسية. وقد مثّل هذا الانفصام التربة الخصبة لأمراض الأمة اللاحقة، التي جعلتها اليوم تقف فكرياً ومادياً مبهورة الأنفاس، عاجزةً عن التحدي الحضاري الذي تواجهه. كما أدى الفصام النكد إلى عزل القيادة الفكرية عن المسؤولية الاجتماعية والممارسة العملية، وهذا بدوره كان العامل الأساس والأهم خلف عجز العقل المسلم وضموره، حتى انزوى في أروقة المساجد، وبين طيّات الكتب النظرية والتاريخية[٧]؛ مما سمح للسلطان السياسي بالقهر والاستبداد، وتطويع كل شيء تصل إليه يده لخدمة مصالح السلطة وأعوانها، وهذا يجعل العلماء والمثقفين ينكفئون على ما في أيديهم في صحون المساجد، ويعيشون حواشي لذوي السلطان، وهوامش على صفحة الحياة. «ومنذ انفصام القيادتين السياسية والفكرية، وعزلة القيادة الفكرية، والأمة وحركتها الاجتماعية والحضارية لا تعيش إلا على بقايا البناء والهياكل، والسياسات الاجتماعية الكبرى التي أرساها الصدر الأول؛ لتستمرّ في تناقض مع معاول الانحراف السياسي والفكري والحضاري الذي يسري في جسد الأمة وقياداتها السياسية والاجتماعية، إلى جانب تغيُّر الأحوال، وتبدُّل المجتمعات والتحديات، حتى لم يبقَ من البناء الإسلامي التاريخي إلا رسومه وهياكله، ولا تكاد تستبين له من وصف إلا فيما تنطوي عليه القلوب من عواطف، أو مما يمارسه الناس في بعض أحوالهم الشخصية من طقوس وتصرُّفات»[٨].

٢- موقف المسلمين من الدنيا: إن الله لا يُعرف بدراسة ذاته؛ فهذا مستحيل، وإنما يُعرف بدراسة ملكوته الضخم، واستجلاء الآيات الدالة عليه هنا وهناك، لا بأسلوب شعري هائم، ولكن بأسلوب علمي صارم، وذلك هو منهج القرآن الكريم. وقد ولدت الملاحظة والتجربة في البيئة الإسلامية، وكان يمكن أن تترعرع وتؤتي ثمارها إلى آخر مدى لولا الانحراف الذي أصاب العقل الإسلامي بالتقعر فيما وراء المادة. ويستحيل مع الجهل بالحياة وقوانينها أن يقوى الإيمان، ويستوي على الطريق.

وكما ينتفع الناس بالحياة الدنيا لذواتهم ينتفعون بها في دعم أفكارهم، وتأييد مبادئهم وقيمهم؛ فالكف العزلاء تخذل الحق، والسلاح التافه يجرُّ الهزيمة. وفي الحملة الفرنسية على مصر في القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد)، كان الفرسان الشجعان يذوبون أمام المدافع الحديثة والذخائر الخبيثة، وكانت خبرة الفرنسيين بالحياة وعلومها وكشوفها تساعدهم على التوغُّل بقدرة، وترغم الأحرار على الفرار أو الموت الرخيص[٩].

٣- ثقافة «الجبرية»: فهي التي كانت وراء الوهن الثقافي

منذ انفصام القيادتين السياسية والفكرية، وعزلة القيادة الفكرية، والأمة وحركتها الاجتماعية والحضارية لا تعيش إلا على بقايا البناء والهياكل، والسياسات الاجتماعية





الصوفية جعلوا الإنسان مشدوداً إلى مصيره المجهول أو المعلوم

الذي أصاب العقل المسلم في الأعماق: فقد مضت قرون على أمة الإسلام وأغلبها يرى أن الطاعة والمعصية، والغنى والفقر، حظوظ مقسومة، وأنصبة مكتوبة، وأن المرء مُسيَّر لا مُخيَّر. ونشأ عن ذلك أن الشخصية الإسلامية اهتزّت، وسيطر عليها لون من التسليم والسلبية، والسبب في ذلك علم الكلام والتصوّف، وبعض مفسّري القرآن وشُرَّاح السنن. فمذهب الأشعري الذي اعتنقه جمهور المتأخرين يتحدث عن المسؤولية الشخصية بأسلوب غامض، لا تتضح معه عدالة التكليف، حتى قال الظرفاء فيه: «أخفى من كسب الأشعري». أما بعض الصوفية، فقد محقوا الإرادة البشرية، وجعلوا الإنسان مشدوداً بخيوط إلهية إلى مصيره المجهول أو المعلوم. وكذلك فعل بعض علماء التفسير والحديث وهم يشرحون النصوص المتصلة بالقدر[١٠].

ومن كل هذا نفهم أن هذا المناخ الثقافي المغشوش سيطر على العقل الإسلامي ردحاً من الزمن، ولا تزال رواسب هذا المناخ حاضرةً حتى اليوم على الرغم مما تعاقب عبر تاريخنا من محاولات التجديد والإصلاح والتغيير.

٤- تعرّض التاريخ الإسلامي لحملات التشويه والتحريف والتزييف: ويمكن أن نلمح الخطوط الفكرية لهذا التشويه، الذي أوهن الثقافة التاريخية عند المسلمين، في النقاط الآتية:

أ- إبراز خط الانحراف في التاريخ، وإخفاء الجوانب البيضاء من الصورة: مما يعطي إيحاءً خبيثاً بأن الإسلام لم يعش إلا مدة قصيرة من الوقت، وأنه ليس فيه من المقومات ما يعطيه استمرارية الوجود، وليس فيه ما يستحق الحرص عليه، بل ينبغي نبذه والانسلاخ منه[١١].

ب- التركيز في تشويه حقبتين اثنتين من تاريخنا الإسلامي خاصة: صدر الإسلام، والدولة العثمانية: لسببين مختلفين، وإن كانا يلتقيان في النهاية عند محاولة سلخ الأمة، وتوهين صلتها بدينها.

فأما حقبة صدر الإسلام، فلأنها موضع الفخر والاعتزاز الشديد لدى كل مسلم، وهي التي حفظت للإسلام حيويته على مرّ القرون على رغم كل ما أصابه من الكوارث في الداخل والخارج. ففي كل جيل من أجيال المسلمين يوجد من تهفو نفسه إلى تلك الحقبة الفذة، فيحاول أن يعيد تحقيقها في نفسه أو فيمن حوله، فيمتد خط الإسلام ولا ينقطع، وينبعث في كل مرة بعد الغفوة والجمود.

أما بالنسبة إلى الدولة العثمانية، والسلطان عبدالحميد خاصة، فإن عبدالحميد قاوم أوربا مجتمعةً للقضاء على الدولة العثمانية، ولأنه رفض إعطاء وطن قومي إلى اليهود في فلسطين فقد سوَّدوا صفحات تاريخه وحكمه[١٢].

ج- إثارة العنصريات وتعميقها بين العرب والبربر والأتراك والفرس؛ بهدف إضعاف روح الإخاء الإسلامي، وهم يتذرَّعون لذلك بإحياء النزاعات والخلافات بين هذه العناصر الإسلامية.

د- تشويه منصب الخلافة الإسلامية ورميه بأبشع الصفات، وإعلان حرب دائمة عليه بعد زواله. وقد كانت اتفاقية «كرزون» المبرمة ضمن مؤتمر «لوزان» في ٢٤ يوليو عام ١٩٢٤م متضمنةً في بندها الأول إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً من تركيا، وفي بندها الثاني أن تقطع تركيا كل الصلة بالإسلام[١٣].

خمائر التجديد في الفكر المعاصر

لا شك أن حركات إصلاحية وتجديدية في بعض البلدان العربية سبقت حركة الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧م)، وركزت في العيوب الداخلية من منطلق الدين وتعاليمه. لكن روّادها لم يلتفتوا إلى ما جدّ في العالم من تطورات، وما قطعه الغرب من أشواط في ميدان التقدم والمدنية، فظلّت نظرتهم التجديدية أحادية الجانب، مشغولةً بهموم الداخل، ولا تمدّ بصرها إلى آفاق العالم الإسلامي الرحبة، تصف العلاج لأدوائه الفاتكة، وتقدّم البدائل لأنظمته الغاربة.

وقد اعتمد الأفغاني في مشروعه التجديدي على إعمال العقل في حركتين متوازنتين: الأولى ستؤدي إلى الاجتهاد في الدين، والأخرى تؤدي إلى إصلاح ديني ينقّي العقلية الإسلامية؛ مما يسهم في تهيئتها لقبول الاقتباس العلمي من الغرب للنهوض المادي. وقد حدّد الأفغاني ستة عوامل تمثّل مقومات تحقُّق النهضة في العالم الإسلامي، هي: الأخذ بالعلم والعقل على المستوى الثقافي، وتحقيق

> الثقافة الأصيلة المتجذّرة في خصوصيات الأمة تجْفَلُ من الثقافة الطارئة الغربية، وهذا بدوره يؤدي إلى نوع من الانشطار الثقافي يوهن الجميع



الحرية والمساواة على المستوى الاجتماعي، والعدل والشورى على المستوى السياسي. وإذا كانت هذه العوامل هي التي أحدثت النهضة في الغرب، فإنها تُعدّ عقيدةً وشريعةً في الإسلام[١٤].

أما الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م)، فقد اهتم بتحرير العقل المسلم من أسر التقليد، وربطه بالمنابع الإسلامية الصافية، وآثر التجديد والإصلاح على المستوى التعليمي التربوي. وحدّد هدفه من الإصلاح في «فهم الدين على طريق سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى منابعها الأولى، واعتباره ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لتردّ من شططه، وتقلّل من خلطه وخبطه؛ لتتم حكمة الله في حفظ العالم الإنساني، وأنه على هذا الوجه يعدّ صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل»[١٥].

ومن بعدهما خرج الشيخ محمد رشيد رضا بحقيقة واضحة، هي أن الإصلاح والتجديد عن طريق السياسة أدنى وأسرع، وأن الإصلاح عن طرق التعليم أثبت وأدوم، وأن كلاً منها يفضي إلى الآخر؛ لذا مزج بين المنهجين[١٦].

إن فكر هؤلاء المصلحين بلور الاستجابة الراشدة لتحديات العصر، وذلك عن طريق اكتشاف توازنات جديدة داخل الفكر الإسلامي بما يحقق الدعم القيمي لأفراد هذه الأمة، وبما يعزّز فاعليتهم وأداءهم في طريق النهوض الشامل.

وبدأت فعلاً محاولات جادة لمعالجة علل الحضارة التي أصابت المسلمين، وحوّلتهم من صنّاع للحضارة إلى متسوّلين لحضارة الآخر بكل قيمها، وتشريعاتها، وطرائق تفكيرها.

وإذا كنا لا نستطيع أن نحدّد بدقة اللحظة التاريخية التي وُلد فيها مصطلح التجديد؛ فإننا وجدنا أن في الثلاثينيات من القرن الماضي كتب الشيخ أمين الخولي مقالاً عام ١٩٣٣م في مجلة (الرسالة)، عدد ١٣، تحت عنوان: «التجديد في الدين». ثم كتب المودودي عام ١٩٧٨م كتاباً باللغة الأوردية: «موجز تجديد الدين وإحيائه»؛ ذلك لأنه حتى منتصف الخمسينيات كان مصطلح «التجديد» مازال هامشياً، ومصطلح «الإصلاح» كان هو الممثّل للخطاب الإسلامي المتحدي للأزمة المعاصرة. كما كتب محمد إقبال «تجديد الفكر الديني في الإسلام» بترجمته العربية، وكتاب عبدالمتعال الصعيدي «المجدّدون في الإسلام من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر» اللذين صدرا عام ١٩٥٥م[١٧].

وتوالت كتابات كثيرة في هذا السياق تحاول تجديد روح الإسلام في نفوس أتباعه، متخذةً «التاريخ» عُدّة هذا التجديد، ومُقررةً أن العالم خسر توازنه ووجوده عندما تخلّف المسلمون حملة الوحي الأعلى الصحيح، وأصحاب العقيدة الواضحة، والتشريع الكفؤ، والطاقة الروحية المتجددة لإلحاق الرحمة بالعالمين، وتحقيق السعادة للبشر في المعاش والمعاد.

وقد كتب الشيخ أبو الحسن الندوي كتابه: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، قدّم فيه صورة مشرقة لـ«تاريخ المسلمين»، ومظلمة للغرب وحضارته، ليقول: «إن الأحق بقيادة العالم هم المسلمون، والعرب خاصة». ويرى بعض الباحثين أن محاولته تلك ينبغي أن تُقرأ في سياقها الزمني التاريخي، ومن ثَمَّ وجدنا بعض المقدمات التي كُتبت للكتاب تقرؤه من زاوية «إعادة الثقة للمسلمين بأنفسهم وماضيهم، ورجائهم بمستقبلهم». وربما فُهمت محاولته - في أحد وجوهها على الأقل - على أنها حالة من الارتداد إلى التاريخ، والاحتماء به في مواجهة العصر؛ مما عكس حالة من العجز عن التعامل مع الواقع[١٨].

إن طرح سؤال (ماذا خسر الآخر؟) فيه تجاهل للفجوة الحضارية الحاصلة بيننا وبين الآخر (الخاسر)، وربما يرى أننا لا نزال في مركز الحضارة، أو أن مجرد وجود «الإمكان الحضاري» أو المقومات الحضارية كافٍ ليؤهلنا لأن نعود إلى مركز الحضارة، والدور الحضاري، والبناء الحضاري.

وقد اعتاد المؤرخون المحدثون للفكر المعاصر أن يسقطوا من حسابهم المفكرين الإسلاميين في هذا الميدان، خصوصاً بعد الشيخ محمد عبده، ورشيد رضا، ويقصروا متابعاتهم عند أحمد لطفي السيد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل، وعباس العقاد، «ممن لا يمكن حسابهم ضمن التيار الإصلاحي بالمعنى الضيق لذلك، إلا أن انصرافهم للتأليف في التاريخ الفكري للإسلام، والشخصيات الإسلامية البارزة، هو إحساس منهم بالحاجة إلى إعادة استكشاف الهوية الخاصة، وإظهار النِّدِّيَّة في مواجهة التاريخ الفكري، وأدب التراجم والسير الذاتية الغربيين اللذين ازدهرا في حقبة ما بين الحربين»[١٩].

القنوات التلفازية لها دور في النهوض الحضاري بشروط

ولا نكاد نجد في شجرة الفكر السياسي والاجتماعي التي يرسمونها إشارةً مناسبةً إلى الشيخ محمد مصطفى المراغي، أو الشيخ محمود شلتوت، والشيخ مصطفى عبدالرازق، والشيخ حسن البنا، والشيخ عبدالحميد بن باديس، ومحمد فريد وجدي، ومحمد إقبال، وتقيّ الدين النبهاني، والمودودي، وسيد قطب، ومصطفى صادق الرافعي، ومالك بن نبي، ومحمد الغزالي. والعجيب أنهم يبحثون لهذا الإسقاط والتجاهل لمدرسة فكرية بكل خصائصها ومميزاتها وأعلامها بتسويغ هذا الاستبعاد على أن أعلام هذه المدرسة ليسوا إلا أعلام مدرسة فقهية، أو مدرسة لتفسير القرآن، أو تربية للنشء، وتقويم السلوك، ليس غير، ولا يهمُّها في الأساس إلا تدقيقات الاستدلال، وطرائق علماء أصول الفقه، ونهجهم التقعيدي والقياسي. ولا علاقة لهذه المحاولات الأولى بعالم الأفكار التجديدية، وبرامج الإصلاح الشامل في مواجهة الهجمة الغربية في شقّيها الثقافي والتقني.

والحقيقة أنها مدرسة إصلاحية إسلامية ذات اهتمام شامل،



وأطروحات تنظيمية للمجتمع والاقتصاد والسياسة والأخلاق، مع تأصيل الوعي بالذات، وإقرار التمايز، واستيعاب المتغيرات، والعمل داخل السياقات المعرفية للعالم المتغيّر.

التجديد الثقافي في مواجهة الاستبداد الداخلي والاستتباع الخارجي

صحيح أن المثقف هو الذي يريد أن يوصل إلى الآخرين وعيه وإدراكه وفهمه الأشياء والعالم. ومن حق هذا المثقف أن يحلم بعالم أفضل، ويسعى إلى الدفاع عن الحقوق والحريات، ويستميت في الدفاع عن القيم للنهوض والتقدم والارتقاء. وهذا لا يعني أن سبيله مُعبَّد ميسور، بل هو مشحون بالعراك السياسي والاجتماعي، ومن ثَمَّ كانت النخب الثقافية عبر التاريخ تقدّم تضحيات جساماً في سبيل تحقيق الرقيّ الاجتماعي والثقافي. ولكن إذا كان كلّ ما حول هذه النخب الثقافية يشدّ إلى تحت، ويسحب بساط الثقة من تحت أقدامها، بل يزهد في التعاون معها: فإن المشهد كما نراه يعكس حقيقة الواقع.

قد يكون المجتمع معذوراً عندما لا يرى ثمار الثقافة والمعرفة تتجسد في المزيد من الرقي الفكري والشعوري والسلوك الراشد، مع فتح الآفاق الجديدة للعمل الدؤوب. إنهم لن يُقبلوا عليها، ولن يُضحّوا بشيء من أجلها.

ولعل سبب هذا الزهد في الاندماج الثقافي، والشغف بالمعرفة، هو التهميش الذي يعانيه المثقف، والغربة التي تعصف بطموحاته وآماله؛ فهو يُؤدلج ثقافياً، فتصبح جميع المناشط الثقافية نزعات موسمية ومهرجانية تخطّط لها السلطة، بل تفرضها بالقوة حيناً، أو توعز إلى زبانية الثقافة بالإشراف عليها أحياناً أخرى، ومن ثَمّ تتعوّد الجماهير هذا النمط من الفعل الثقافي، فتصبح مع مرور الوقت مهيأة لقبول هذا الاستبداد، أو متواطئة للتعايش معه.

هذا يحصل في الأجواء التي تصنعها نخب السلطة، وتنفذها سلطة النخب: مما يضفي على الأجواء الثقافية روح العراك والتراشق والتلاحي، بعيداً عن البناء والإعمار.

وفي ظل هذه الأجواء أيضاً تُمرّر النخب الثقافية المفتونة بالثقافة الغالبة - مؤقتاً - مشروعاتها، وتلتفّ حول ثوابت الأمة ومقدساتها؛ لتهوي بها في مكان سحيق، ضاربةً عرض الحائط بخصوصيات الثقافة، وحساسيات المجتمع، ومشاعر المواطنين في باقي الوطن على حدّ تعبير أصحاب الأرصاد الجوية.

ومن ثَمَّ، فإن الثقافة الأصيلة المتجذِّرة في خصوصيات الأمة تُجْفِلُ من الثقافة الطارئة الغربية، وهذا بدوره يؤدي إلى نوع من الانشطار الثقافي يوهن الجميع. ويأتي الوهن في الظرف الذي تشعر فيه الأمة بتحقير الذات، وعقدة النقص تجاه الآخر، ويزول حين يرتقي الشعور بالذات إلى الشعور بالقدرة على النهوض من جديد، ولن يتأتى ذلك إلا بالوعي، وتقدير القوة الكامنة والطاقة المبدعة، وحينئذ يحصل ما يسمى بالتبادل الثقافي الواعي.

والحقيقة أن مصادرة الثقافة المحلية، وعدم وجود سياسة تثقيفية واضحة، جعلا المواطن يقرأ القراءة الملونة المجزأة، وهذا اللون من التثقيف لا يتيح للمرء الشعور بمباهج المعرفة، ولا يساعده على التقدم المعرفي؛ لأنه يتعامل مع مُعطًى ثقافي مزدوج لا يكاد يتبيَّن فيه الأصيل من الدخيل. والغريب أن فئة (الأنتلجانسيا) في بلادنا ليس لها مشروع ثقافي يفتح الأعين على النافع من ثقافة الغرب من (التقانة، والمنهجية، والتنمية البشرية). للأسف، ألفت هذه النخب التقعُّر بمعرفتها الأطر العامة للثقافة الغربية، وتتغنّى بإلمامها بتراث أعلامها، وهضمها أنساقها المعرفية المختلفة. والحق أن هذا المسلك المريب لا يؤسِّس إلا لثقافة تحترف الافتتان بكل بريق ظاهر، ولا تُعنى بالجوهر المخبوء.

تأمّل جميع برامج الأحزاب السياسية في بلادنا، سواء العملاقة منها أو القزمة، فلن تجد برنامجاً واحداً يخلو من أدبيات المشروع الثقافي، والتنمية الثقافية، وغيرهما من المصطلحات. ولكن أعينكم لا تقع أبداً على مجلة للثقافة يصدرها هذا الحزب أو ذاك، بل إن بعض أعضاء هذه الأحزاب ممن كانوا ينتمون إلى النخب الثقافية، وملؤوا الدنيا جؤاراً للتنديد بالخواء المزري الذي تعانيه الساحة الثقافية في بلادنا؛ لا تجد لهم ذكراً في ميادينها اليوم، وراحوا يلهثون وراء العلاقات الشخصية، وتعويض الفقر المادي الذي حُرموا منه، والسعي وراء ضمان مستقبل أولادهم - على حد تعبير أحدهم - بعيداً من هموم أمتهم، وطرح قضاياها المصيرية والتحديات التي تواجهها.

إن الاقتباس المعرفي والثقافي لا يعني استعارة المشروع الحضاري لأمة من الأمم الأخرى، وإنما يعني الانفتاح الرشيد، والتواصل الإنساني القويم المتَّجه إلى استنفار كل طاقات الذات وإمكاناتها في

سبيل هضم منجزات العصر، وإدراك متطلباته، والحصول على تقنياته على قاعدة العلم والمعرفة بها، لا على قاعدة الانبهار النفسي بها؛ لأن الانبهار النفسي هو الذي يُلغي كل عوامل التفاعل الخلاّق مع التقنية والمنجز العلمي الحديث. ويشير كتاب «هل اليابانيون غربيون؟»، الصادر عام ١٩٩١م، إلى نمط الاقتباس المتَّبع عند اليابانيين بقوله: «إن الأشياء والأفكار الغربية تدخل إلى الجماعة بعد أن يتم استيعابها وهضمها أولاً، ثم تحويلها إلى مادة يابانية»[٢٠].

وإذا كان «إقلاعنا الحضاري» هو طوق نجاتنا من مخاطر هذا الاجتياح؛ فإن لذلك «الإقلاع» سنناً وقوانين ممكنة التحقيق، ولسنا بإزاء عاهات مزمنة تثمر «جبريات وحتميات» يستحيل تجاوزها، والشفاء من أمراضها[٢١].

إن الاستبداد الداخلي مهّد فعلاً للاستتباع الخارجي، وقد سيطر أصحاب الفكر المؤدلج قسراً، مستغلين راهن التشرذم السياسي والجمود الثقافي؛ ليدسُّوا ويدعموا قوى تعمل من داخل النسيج الاجتماعي المحلي، مع التصنُّع في الولاء لمكونات الهوية الثقافية، والعمل سراً وجهراً لإلحاق الداخل بالخارج، وإلغاء الذاتية الإنسانية المحلية، «فيما يشكّل ردةً نحو طغيان الممارسات الهمجية الضيقة الأفق التي شاعت قبل أن تكون المجتمعات الإنسانية الحديثة»[٢٢].

إننا لا نسدّ الأبواب أمام تلاقح الأفكار بغض النظر عن المرجعيات والأصول والمنابع الأصلية، ولكن التفاعل ينبغي أن يكون تفاعلاً بنَّاءً وتطويراً، لا مماحكة وسجالاً عقيماً؛ مما يغذّي الوهن الحضاري الذي يعتري الأمة، فيطفئ فاعليتها، ويقعد بها عن بلوغ أهدافها، وحمل رسالتها.

التجديد الثقافي مهمة الجميع

يمكن القول: إن الركود الثقافي عملية معقدة ومركبة، وكل الشرائح والفئات والطبقات والمدارس والتيارات تشترك في صنعها وترسيخها، ولا يمكن الخروج من مأزق هذا الركود إلا عن طريق:

- مشاركة جميع الأطياف الثقافية - كلٌ من موقعه - لإعادة صنع مشهد ثقافي تُلبَّى فيه حاجات الأفراد المعرفية، ويُستجاب فيه لتطلُّعات المجتمع، والقيام على حلّ مشكلاته. وهذا لن يتأتى إلا بانصراف المثقفين عن توافه الأمور والقضايا الفرعية، وأن يشتغلوا معرفياً وفكرياً عبر الإنتاج والخلق المعرفي والجمالي بالأفكار والمعارف ذات الأولوية، التي تتجه إلى تجديد روح الأمة، وتزرع في محيطها العافية والتقدم والنماء.

- إن التجديد الثقافي سلسلة من العمليات والموازنات الدقيقة التي تجعل هذا التجديد يرتكز على دعامتين أساسيتين: الخصوصية الحضارية للأمة، والانفتاح على ثقافة العصر وآلياته، مع الحذر والحيطة في التعامل مع الثقافة العولمية، التي تحرص دوماً على إلغاء خصوصيات الثقافات الأخرى، ونسف مرجعيتها، وتفريغها من محتواها، وفرض أنموذج أوحد يتفنَّن في طرائق الإلغاء والإقصاء. وهذا - بلا شك - يدخلنا في حالة من الارتهان الحضاري الشامل. ولك أن تأخذ - كمثال حيّ - ما تقوم به المراكز الثقافية الفرنسية اليوم حينما امتدت في فراغنا.

- لا بد من تجديد الخطاب الثقافي، وذلك بحسن توظيف هذا الخطاب بما يناسب الظروف الراهنة على الصعيد الإسلامي المجتمعي، وعلى الصعيد الدولي الخارجي. وفي ظلّ العولمة الثقافية لا يمكن إلا اتِّصاف الخطاب الثقافي الإسلامي بالطابع الإنساني الذي تأنس إليه النفوس؛ «لأنه خطاب يتمحور بكل نماذجه وأبعاده حول إعادة بناء الإنسان محور الحضارة ومعيارها، والارتكاز في ذلك إلى رصيد الفطرة التي فطر الله الناس عليها... متجاوزاً كل الفوارق البشرية التي لا بد للإنسان في إيجادها أو نفيها؛ كاللون، والجنس، والقوم، والذكورة، والأنوثة... بل جعل الأجناس والأقوام والبلدان عوامل عطاء حضاري، ووسائل تكامل وتعاون»[٢٣].

- لا بد من إعادة الثقة بقدرة المثقف على تقديم الحلول الناجعة، وإزالة تفرد «السياسي» الذي يوهم الجميع بأن له عصا سحرية تحلّ المعضلات، وتفك الأزمات؛ لأن رؤية الناس هشاشة تأثير المثقفين في مسيرة الحياة الاجتماعية دفعهم - يقيناً - إلى الزهد في المعرفة، وكل ما يدلي إليها بسبب.

- إن إمكانية الدولة الضخمة سوف تظل دون مستوى الوفاء بمتطلبات الناس من وسائل المعرفة، ومن ثَمّ، فإنه لا بد أن تسهم الهيئات المختلفة (الجمعيات الثقافية، والجمعيات المدنية، والشركات الخاصة، والموسرون من حملة الهم الثقافي) في تأسيس ثقافة القراءة، والتزوُّد من الكتب، وإنشاء المكتبات العامة في جميع البلديات، والارتقاء بدورها عبر التحسيس، وبثّ الوعي حول

الحاجة المعرفية للإنسان. وقد نستطيع تحقيق ذلك عبر تشكيل مجلس وطني لإقامة المكتبات، ودعمها، وتطويرها، وأعتقد أن كثيراً من الناس سوف يقفون كتبهم الخاصة على هذه المكتبات، أو يتبرعون لدعمها، وتحسين أدائها.

- وأظنّ أن التشجيع على القراءة يتم عبر دعم سعر الكتاب بإعفائه من الضريبة الجمركية، وتشجيع دور النشر، وخفض سعر الورق وأدوات الطباعة، وتطوير البنية التحتية بالتوسُّع في إنشاء المؤسسات الثقافية. وقد يعجب المرء وهو يقرأ أن بعض الدراسات في الغرب تُظهر أن الرجال في أمريكا يقرؤون في المتوسط (٣٩) دقيقة يومياً، في حين تقرأ النساء ما متوسطه (٢٦) دقيقة. ويقرأ ٧٢٪ من الناس في بريطانيا صحيفة يومية، وبلغ معدل الاستعارة من المكتبات العامة في بريطانيا (٦٥٠) مليون كتاب؛ أي: نحو ٢٦ كتاباً لكل من يقرأ كتاباً على الإطلاق. هذا عدا الكتب المشتراة والمستعارة من الآخرين.

أما إذا أردت أن تعرف ما يُباع لدينا من الكتب فاسأل المؤلفين والناشرين؛ ليخبرك أحدهم - مثلاً - أن كتاباً طُبعت منه ١٠٠٠ نسخة فقط، وهو مقرَّر على طلاب الجامعة، ولم تنفد نسخه الألف إلا بعد مرور أكثر من ثلاث سنوات.

يجب أن نعرف موقعنا من قرَّاء العالم، وموقع سياسة النشر المكتبي في بلادنا؛ لندرك الفرق بين التأسيس للعلم، والتقعيد لعلم الجهل، الذي يؤسِّس بدوره لثقافة الصمت، ولا يكاد يفكّ إسارنا من السكونية التي بلغت أقصاها.

- تجديد التشريعات والقوانين المتعلقة بفتح القنوات التلفازية الخاصة؛ للقضاء على الخواء، والعجز، وضعف الحيلة الذي تعانيه القناة الوطنية اليتيمة، وإخضاع هذه القنوات الجديدة لمعايير الجودة والإبداع ومواكبة التطور التقني، مع مراعاة المنظومة القيمية للمجتمع، والاستفادة من التحولات الإيجابية المتغيرة؛ لنجد لأنفسنا قدم صدق في العالم الذي نُصارعه ونُضارعه.

- يجب ألاَّ يكون المثقف شاهد زور ليس له مهمة إلا الإفتاء لتسويغ ما يجب أن يُدان، وما يجب أن يزول. وعليه ألاَّ يتفنن في وضع الأصباغ والمساحيق القانية الملونة لتجميل القبيح، وإظهاره في أحسن الحلل وأبهاها؛ فإن الحسّ الجماهيري مهما كان ساذجاً فإنه لا يخطئ في التقويم والتقدير والتمييز.

المراجع

١- مالك بن نبي، شروط النهضة، ط٤، دمشق: دار الفكر، عام ١٩٨٧م، ص٣٠.

٢- محمد محفوظ، الثقافة والآخر الثقافي، www.Renewalarab، ٢٠٠٥/٢/٢١م.

٣- محمد عمارة، الإسلام والمستقبل، ط٢، بيروت: دار الشروق، عام ١٩٨٦م، ص٤٢، ٤٣.

٤- محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، الجزائر: دار الهدى، ص٤٧، ٤٨.

٥- المرجع نفسه، ص٥٨، ٥٩.

٦- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دمشق: دار الفكر، عام ١٩٨١م، ص٥٤.

٧- عبدالحميد أحمد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، الجزائر: دار الهدى، عام ١٩٩٢م، ص٤٠، ٤١.

٨- المرجع نفسه، ص٥٩.

٩- محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية، مرجع سابق، ص٦٥.

١٠- المرجع نفسه، ص٦٩، ٧٠.

١١- محمد قطب، واقعنا المعاصر، الجزائر: مكتبة رحاب (د. ت)، ص٢٩٧.

١٢- المرجع نفسه، ص٢٩٩.

١٣- عبدالحليم عويس، فقه التاريخ في ضوء أزمة المسلمين الحضارية، ط١، القاهرة: دار الصحوة، عام ١٩٩٤م، ص١٦٢-١٦٤.

١٤- محمد يونس، الأفغاني لا يزال نموذجاً شامخاً للتجديد الإسلامي، الأهرام، ١٩٩٧/٧/٤م.

١٥- محمد عبده، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، بيروت: المؤسسة العربية، ج٢، ص٣٠٨.

١٦- محمد يونس، تجديد الفكر الإسلامي على مشارف قرن جديد، ط١، القاهرة: دار القلم، عام ١٩٩٩م، ص٢٥.

١٧- Islamweb.net ٢٠٠١.

١٨- معتز الخطيب، وسام فؤاد: لماذا نعيد طرح السؤال «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، Qadaya@Islamonline.net ٢٠٠٤/١١/٦.

١٩- رضوان السيد، سياسات الإسلام المعاصر: مراجعات ومتابعات، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، عام ١٩٩٧م، ص١٦٣، ١٦٤.

٢٠- محمد محفوظ، الثقافة والآخر الثقافي، مرجع سابق.

٢١- محمد عمارة، تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمنة، القاهرة: نهضة مصر، عام ١٩٩٩م، ص١١.

٢٢- سعيد خالد حسن، التغيير والتجديد والانعكاسات الدولية، Islamonline.net ٢٠٠٤/٢/١٢.

٢٣- عمر عبيد حسنة، الوراثة الحضارية، ط١، بيروت: المكتب الإسلامي، عام ٢٠٠٣م، ص٤١.

التخصّصات النادرة

(الوطن غالٍ، ليس ثمنه اليورو والدولار وراحة البال)

عوض بن خزيم آل سرور الأسمري

السعودية - الرياض

التخصّصات النادرة في عالم اليوم كثيرة، وقد لا تكون نادرةً، ولكن زيادة الاحتياج جعلها تبدو كذلك. فمع التوسّع في إنشاء جامعات جديدة، ومدن اقتصادية تعتمد على اقتصاد المعرفة، زاد الاحتياج إلى أعضاء هيئة تدريس من أساتذة، وباحثين، وفنيين، واختصاصيين في جميع التخصصات العلمية المختلفة. وسبق أن زرتُ عدداً من البلدان العربية والأجنبية لاستقطاب مجموعة من أعضاء هيئة التدريس المتميزين، ولكنّ هناك عدداً من التخصصات الدقيقة النادرة في مجال الهندسة الكهربائية، وهندسة الحاسوب، والهندسة المدنية، والهندسة الصناعية. حاولت مدةً تزيد على سنة ونصف السنة الحصول على متخصصين في مجال الاتصالات (اتصالات رقمية، هوائيات معالجة الإشارات الرقمية، المعالجات الصغرى، أمن المعلومات، هندسة الشبكات، إلكترونيات VLSI)، ولكن لم أحصل على الكفاءات المطلوبة. وفي مقابلة مع عدد من مديري الجامعات وعمداء كليات الهندسة ذكروا لي أن معظم المتخصصين في هذه المجالات يذهبون إلى أمريكا وبعض دول أوربا؛ لأنهم يحصلون على مرتبات أعلى بأضعاف مضاعفة مما يحصل عليه عضو هيئة التدريس في بعض الجامعات العربية والأوربية. وهذه ليست مشكلة دولة بذاتها، أو جامعة ما، وإنما قد تزيد هذه الظاهرة في بلد دون آخر.

نحن في العالم العربي على وجه الخصوص، وفي بعض دول العالم، نمرّ بأزمة واضحة في بعض التخصصات النادرة. السبب ليس سوء التخطيط؛ فمصر - على سبيل المثال - أدركت أن هناك احتياجاً مستقبلياً في مجال الحاسوب والاتصالات منذ أكثر من ٢٥ سنة، فأرسلت بعثات كثيرة إلى أوربا وأمريكا واليابان. ولكنها واجهت مشكلة كبيرة لم تكن في الحسبان؛ إذ لم يعد المبتعثون ذوو التخصصات النادرة إلى بلادهم، وفضّلوا البقاء في أرض الغربة والعمل فيها على العودة إلى أوطانهم التي ضحّت من أجلهم وعلّمتهم وخسرت دم قلبها عليهم. أعلم أنهم في راحة، ويحصلون على دخل أعلى مما سيحصلون عليه في أوطانهم، ولكن لا بد من التضحية في سبيل الوطن، خصوصاً إذا كانت هناك تحدّيات صعبة. أما أن نسهم في بناء أوطان غير أوطاننا فذلك فيه نظر!.

إنها مشكلة كبيرة تمرّ بها الأمتان العربية والإسلامية على حدّ سواء. ففي إحدى مقابلاتي مع مدير جامعة مصرية مرموقة، ذكر لي أن جميع طلابه المبتعثين في مجال الاتصالات والحاسوب لم يعودوا؛ مما اضطرّه إلى الذهاب إلى كندا ومقابلة عدد كبير منهم، وكذلك قابل عدداً كبيراً منهم في أمريكا، وذكر لهم أنهم سيدفعون جميع ما أنفقته الدولة عليهم عند عودتهم إلى مصر، فكان جواب معظمهم: لا ضير، سندفع جميع المستلزمات المالية، ولكن لن نعود، فأنت ترى بأم عينيك النعمة التي نحن فيها، والرواتب التي نتقاضاها عشرة أضعاف ما تتقاضاه أنت مديراً للجامعة. قلت: «يا دكتور، يجب ألا تُقاس الأمور بالمادة. الأمر يتعدى ذلك. المسألة مسألة أمن الأجيال وأمن الأوطان، لنا في أعناقهم دَيْن لا بد أن يردوه، والوطن غالٍ، ليس ثمنه اليورو

والدولار وراحة البال. نحن في جهاد دائم مع أنفسنا؛ لأن النفس طماعة وأمّارة بالسوء». فكان ردّ مدير الجامعة: «بيني وبينك والله ما ألومهم، لماذا يعودون إلى الشقاء والتعب؟!».

أدركت الصين المشكلة منذ أكثر من ثلاثين سنة، فعملت اتفاقيةً مع أمريكا تضمن عودة طلابها، ونجحت هذه الاتفاقية إلى حدّ كبير جداً مع أن بعض المؤسسات الأمريكية استطاعت بطرائق التفافية الاحتفاظ بالمتميزين من الطلاب الصينيين. كذلك دولة تونس لا تسمح لبعض حاملي الدرجات العليا في التخصصات النادرة من العمل أو التعاقد خارج تونس.

في أثناء دراسة الماجستير في جامعة ولاية أوهايو (Ohio State University) بأمريكا، أعطيت أنا وعدد من زملائي ما يُعرف بـ(Jvisa)، وهذه نادرة أن تُعطى إلى الطلبة السعوديين، فمعظم الطلبة (F Visa. Jl Visa)، وهي لا تسمح للطالب بالمكوث في أمريكا بعد التخرج، ولا بد من عودته إلى بلده.

آمل أن يكون هناك آلية للمحافظة على أصحاب التخصصات النادرة؛ حتى لا تتفاقم الأزمة، ونفقد كثيراً من تلك العقول، إما بانحراف خلقي أو ديني، وإما ببقاء تلك الكوادر في أيدي أعدائنا تُوظَّف خلاف ما نتمناه، فنقع فيما وقع فيه الآخرون من أخطاء. كذلك يجب التركيز في هذه التخصّصات في جامعاتنا، واستقطاب الكفاءات المتميزة (حسب معايير التميّز العالمية)، وإعطاؤهم مرتبات مجزية مع مراقبتهم لكي نحصل على جيل متميز من المتخصصين للإسهام في بناء الوطن؛ لكي نصبح من الدول المنافسة في مجال التقنيات الحديثة.

اقتراحات وحلول

- يجب توفير المناخ المناسب لأصحاب التخصصات النادرة، وتقدير النبوغ والتميّز، وسدّ الحاجات الأساسية للمبدعين والمتميزين، وتكريمهم بأفضل الأساليب، وإنشاء مراكز أبحاث بأسمائهم، وتوفير الإمكانيات المادية والبشرية لمساعدة المتميزين والناجحين، ونقل مهاراتهم إلى الأجيال القادمة؛ لكي يتسنى لنا بناء جيل ينافس ويخترع وينتج.

- يجب توفير متطلبات بناء العقول (من مختبرات، ومواد، وميزانيات). وكذلك يجب تشجيع خريجي جامعاتنا، وإعطاؤهم ميزات ومستحقات مساوية لتلك التي تُعطى إلى بعض المقيمين؛ فخريجو الهندسة في جامعاتنا - على سبيل المثال - يُعطون في بعض الشركات بين ٦٠٠٠ و٩٠٠٠ ريال، بينما يُعطى المقيم - الذي قد يكون أقلّ مستوى من المواطن - نحو ٢٠٠٠٠ ألف ريال، إضافةً إلى توفير السكن، والنقل، وتأمين العلاج. وفي اعتقادي أن هذا أحد أسباب هجرة العقول من بلداننا العربية.

- مع ابتعاث عدد كبير من أبنائنا وبناتنا إلى الخارج يجب أن نجد جواباً لبعض الأسئلة الآتية: هل ستبهرهم الحضارة الغربية؟ وهل ستغريهم الحياة الرأسمالية؟ وهل سيعود المتميزون منهم، أو يبقون هناك؟

- يجب إحضار المتميزين ذوي التخصصات النادرة، وتدريس طلابنا في أوطانهم؛ فالحنين إلى الأرض، ورؤية الأهل والأقارب، وزيارة بيت الله الحرام لا تُقدَّر بثمن.

هجرة العقول مشكلة عانتها كثير من دول العالم الفقيرة، ولكنها تكثر في عالمنا الإسلامي. وأحسب أن المردود المادي المغري - وهو أمر له قيمته أحياناً - هو جزء مما اجتذب أولئك. ولكن هناك أسباب أخرى. الفرص الوظيفية المناسبة، والتقدير الوظيفي، والدعم البحثي والمعنوي، وتوفير الإمكانات الأساسية المناسبة هي أمور لم توفّر - أحياناً - لهم في بلادهم؛ لذلك تغلّبوا على قهر الغربة، وتعايشوا مع المجتمعات الجديدة التي احترمتهم فكرياً ومادياً ومعنوياً، وهيّأت لهم ولأولادهم فرصاً معيشية جيدة. هذا الكلام ينطبق على كثير من دول العالم الإسلامي المجاورة، ولكنه قد لا يصدق على أبناء وطننا الكريم؛ فيندر أن تجد من أبنائنا من «خرج ولم يعد»، وذلك لطبيعة بلدنا الخاصة التي أكرمنا الله بها، ولتوافر بعض الأمور الاجتماعية والمادية التي قد لا تتوافر في دول أخرى. ولكن الهجرة داء معدٍ يسهل انتقاله إلى الآخرين، خصوصاً عندما لا تُراعى فيها جوانب الجذب الجيدة؛ فاستقطاب العقول، وتنمية ما نملك منها، يحتاجان إلى توفير البيئة التي تُحترم فيها تلك العقول، وتدعم مادياً وفكرياً وبحثياً ومعنوياً، وتطويرها. وهو أمر يجب أن تضعه مؤسساتنا التعليمية في الحسبان.